على الباب موجة

أحمد راشد ثاني



على الباب موجة

أحمد راشد ثاني

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

ثاني، أحمد راشد، 1962 –
على الباب موجة/ أحمد راشد ثاني. – ط1. – أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي، 2009.
ص. ؛ سم.
ت د م ك 978-9948-01-271-9
1– ثاني، أحمد راشد، 1962 – . 2 – الأدب الشعبي – الإمارات العربية المتحدة. أ – العنوان.

LC GR 295.U55.T36 2009



الطبعة الأولى 1430 هـ 2009م

صورة الغلاف: عمر الزعابي
تصميم الغلاف: صالح المرزوقي

أبوظبي – الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380، هاتف: 300 6215 2 971+

publication@cultural.org.ae
www.adach.ae

على الباب موجة

على الباب موجة

المعترض

المعترض

–1–

ينظف الجبل نفسه مع كل وابلٍ من المطر. فحينما تتكدس الغيوم السوداء والداكنة على رأسه، وتنفتحُ صنابير السماء، ترى حتى من بعيد شرايينه وعروقه تظهرُ وتتميز وتتورم بلون بني يحفه بياض الرغوة، لتصب في جذع واحد، تتوزع جذوره على نواحي الأرض، تحت الجبل، وفي كل اتجاه. وكأن تلك العروق أغصان شجرة ضخمة من ماء تُرسم على جسد ذلك الجبل. وكأنها مخيال عطشه واكفهراره في أغلب شهور السنة غير الممطرة.

الوادي إثر ذلك يستجمعُ خطواته الأولى، ويحشدُ قوته كي يهب مهرولاً باتجاه البحر، حافراً في المجرى الذي سبق وأن ركض فيه أسلافه من الوديان، حاملاً كل ما يصادف هرولته المهيبة تلك من أشجار أو حيوانات أو منازل، أو حتى بشر إذا ما لزم الأمر. لهذا، كان على من ينوي الشروع في إنشاء بيت جديد تجنب تلك الوديان العارمة والمسايل الخادعة والمجاري التي يُفضِّلُ الجبل سلوكها وهو يركضُ بماء المطر كي يسقي البحر.

فالساكن الجديد عليه أن يختار سفحاً صخرياً مكيناً أو يقترب من السهل الحصوي المطل على البحر وكأنه باحث عن الأمان بلا جدوى، بينما يترك بساتين النخيل خلفه وكأنها ستحميه من طعنات الظلام.

كذلك ينبغي اختيار بئر، وفيما عدا ذلك فالأرض

مفتوحة ومشاعة. فقط ضع ليصير ما حولك مكانك وبيتك وحرمك.

هكذا بظني ارتحل أبي وأمي ذات يوم من أواخر الخمسينيات من القرن العشرين إلى حيٍّ يبدأ بالتكون في خورفكان[1]. ذلك الحي الذي حمل اسماً غامضاً هو: «المديفي».

أما خورفكان فلقد سميت كذلك لأنها «خور» كانَ وما يزال يتوغل في اليابسة بشكل نصف دائري، وكان المديفي يقع تقريباً في النقطة الأقصى لاتساع ذلك القوس البحري.

لهذا كان الجَزر يترك هناك بقعاً واسعة من أراضي البحر لكي تلهو في أرجائها طفولتنا، بينما تقف الأمواج حين المد عند أعالي كثبان الشاطئ كما لو أنها تريد القفز من على تلك الحدود التي وضعها إله ما، حبة رمل فوق أخرى، ولقرون عديدة.

قرون جاءت ومن ثم مرت على هذه البقعة المنسية، تماماً كالرطوبة أو الضباب أو الرياح التي تصل منهكة إلى هنا بعد أن قطعت مسافات هائلة من المحيط.

وتتغير مقامات وأحوال ذلك الساحل اللونية بين فجر وضحى وظهيرة وعصر وليل. في بدء الشهر ومنتصفه وأواخره. في الصيف أو في الأيام الغائمة أو الممطرة، الهادئة أو العاصفة.

---

(1) عدة مرّات يتطرق الكاتب إلى خورفكان وتسميتها كما في صفحة 25 وما بعدها، وص 97 وما بعدها، إذ هذا الكتاب، كل هذا الكتاب، من جانب، عن خورفكان.

ولكل مقام أو حال وقع نفسي ذو أحاسيس بسيطة وشفافة يصعب التعبير عنها بسهولة، هذا إذا كان ثَمَّ من يستطيع التعبير عن ذلك بسهولة.

رؤية الشمس وقد أوشكت على اعتلاء البحر في الصباح أو التموجات عند غروب الشمس في جو ماطر، من أكثر الصور تردداً في مرايا الداخل وترسباً في قيعان الروح. رمل ذلك الشاطئ من التبر الروحي الخالص وأمواجه أطفال يلعبون في حديقة السماء وأشد الأفكار حقيقية تنتاب المرء في محرابه.

إن مؤرخي المنطقة المستعجلين دوماً يحبذون حين يكتبون عن خورفكان قص حكاية تلك المرأة العجوز التي يُقال بأنها أقسمت أن لا تأكل من أسماك هذا البحر لكثرة ما رأت من دم. ومن المؤكد أن المجزرة البشعة التي ارتكبها البرتغالي الفونسو البوكيرك في خورفكان لم تكن الأولى ولن تكون الأخيرة[1]. إذ أن الكثير من شهوات القتل الجماعي، أو ما يُسمى بالحروب، لم تستطيع منع حدوثها لا الأمواج

(1) على إثر ما يسمى بالكشوف الجغرافية اندفعت السفن الحربية والتجارية البرتغالية نحو الهند، ومنها للقضاء على مملكة هرمز التي كانت مزدهرة وقتها في منطقة مضيق هرمز.
أما الفونسو البوكيرك فإنه قائد الأسطول البرتغالي وكان شرساً وصليبياً وازدادت شراسته عندما عُيّن نائب للملك على الهند فهاجم هرمز بحملة كبيرة عام 1507، وفي طريقه نزل كالعذاب على هرمز، وعلى العديد من الموانئ كشناص وخورفكان وأباد أهاليها.
عن خورفكان خصيصاً كتب ابنه بالتبني صفحات تصف نزول البوكيرك على ساحلها وهي صفحات وحشية وبربرية للغاية.

الصغيرة التي تركض كالخراف خلف الراعي الإلهي، ولا الأمواج الكبيرة التي لطالما ارتفعت لكي تتحطم أشد.

لهذا فقد عبَّ الجَزْر على أمواج مثل هكذا «خور» كثيراً من الدماء وتقيأ المد أكثر.

ورغم أن خورفكان ميناء محصن جداً بالجبال ومن ثلاث نواح، وكان على من يريد غزوها إحداث المفاجأة، فإن المفاجأة كانت تحدث ودائماً من الناحية الأرهف، من نقطة ضعفها وقوتها في آن: البحر. فكما يجلب البحر الرزق، فإنه يجلب كذلك ما لا يتوقع من البصل العفن والخراب.

وهذه الثنائية أو التركيبة المزدوجة لمثل هكذا احتفال مائي مهيب جالس على الرمل هي ما يجعل البحر مفتوحاً لِكَيْ القلوب، ومشروحاً بإطناب لنظرة العيون المحترقة.

ومن استحمت طفولته في مياه ذلك البحر مثلي لا يجد في الأمواج المتراقصة على الشاطئ أي أثر لا لمجازر البوكيرك ولا لخيول هرمز. فلقد قرأت في كتب التاريخ أيضاً أن خورفكان كانت مزرعة خيول لتجار مملكة هرمز الذهبية[1]، وأثار هذا استغرابي الشديد، فخورفكان على حد علمي لا تعرف عن الخيول شيئاً. ومنذ أن مشت قدماي فيها لم أر إلا خيلين أو ثلاثة كان يمتطيها حرس

(1) تذكر المصادر التاريخية بأن خورفكان كانت تابعة لفترة من الفترات لمملكة هرمز، وكانت على الأرجح مصيفاً لتجارها وسادتها.

«السياسي»[1] في حينها. لكن بحرنا أو «تاريخنا» عموماً قادر على ما يبدو، حتى على التهام الخيول.

—2—

جمع الحي الجديد، حينئذ، حي المديفي أو فريقها، (تنطق: «فريج») أشتات بشر جاؤوا من قبائل وجهات مختلفة، وكان عليهم السكن في طرف ما من القرية فاختاروا هذا الطرف.

من الشمال تفصلهم مسيلة وحزام من النخل والأشجار، ومن الجنوب يتهادى خلاء فسيح تحده أذرعة جبال «الحوامي»[2] العالية والمتلاحقة والضخمة والمستريحة بعد «سبخة» و«سيح»[3] في الغرب. وَحْدَهُ البحر منفرداً ومستمتعاً بالشرق. تقطع الشمس من الصباح وحتى ما بعد الظهيرة (حيث بإمكانك جمع حطام أشعتها

---

(1) «السياسي» تسمية كان يطلقها الأهالي على المسؤول البريطاني في المنطقة (حول السياسي راجع أيضاً ص 56و57). أما عن البريطانيين فقد تسيدوا المحيط الهندي بحاره وخلجانه ومنها بحر العرب وبحر عمان والخليج على إثر انهيار القوة البحرية البرتغالية، إلا أن تحكم بريطانيا بإمارات الخليج ازداد بعد معاهدات 1820 التي أضحت المنطقة بعدها مستباحة لشركة الهند الشرقية حتى عام 1858 لتصبح تابعة بعد ذلك لحكومة بومبي نيابة عن بريطانيا ثم بعد ذلك (في حدود 1876) أصبحت تابعة لحكومة الهند البريطانية واستمر ذلك حتى انسحاب بريطانيا من المنطقة في عام 1971.

(2) لا أعرف على وجه التفصيل حكاية اسم هذه الجبال، لكن ما يبدو ظاهراً أن الاسم جاء من الحماية.

(3) «السبخة» هي الأرض الرملية والمالحة، أما «السيح» فهي الأرض المنبسطة.

من على حواف الأمواج) مرآته المتلجلجة، مبدياً بذلك شاطئاً طويلاً ومفتوحاً يزيد انفراجه على نصف الدائرة التي تشكل العرجون، بينما يُكمل عرجون الجبال ذاك الجسد الهلالي لخورفكان. وكما تشرق الشمس دائماً، تشرق أيضاً علي حي المديفي الضئيل، والمبنية أغلب بيوته وقتها من جريد النخل، ثم تطوّر الأمر لاحقاً – أو هكذا أظن – إلى الطين الذي يُعجن مع نباتات برية وتُطلى به الأحجار.

ومثل هذا البناء لم يكن يُعمِّر طويلاً، إذ كلما جاءت دفقة قوية من المطر برزت أحشاء تلك الجدران، هذا بالطبع إذا ظلت واقفة، إذ عادة ما تتحول إلى أكداس من الحجارة حتى أنك بعد مدة وجيزة من تكدسها ترى زهوراً برية صفراء أو بيضاء مائلة للاصفرار قد ظهرت من ذلك الركام الذي كان جداراً لغرفة أو لحوش.

السقوف كذلك لم يكن حالها أفضل، فعندما تُمدد جذوع «الكندل»[1] على الجدران المتقابلة وقد وضعت عليها أنسجة أو حصائر من السعف، وبعد أن يُدعك الطين بـ«الصخبر»[2]، تصبغ تلك الحصائر بذلك الخليط، فإذا ما هبت عاصفة ممطرة وقوية أسالت ذلك العجين الخفيف من الطين، فأطارت السقوف لتجد قطعها بعد مرور العاصفة على رؤوس الأشجار وفي الحوش وعند الجيران.

مطر خفيف قد يثقب ذلك السطح في هذا المكان أو ذاك فـ«يخرُّ»[3]

(1) نوع من أنواع خشب البامبو الكبير، ويستود غالباً من الهند.

(2) نبتة برية.

(3) فصيحة، بمعنى تسرب.

المنزل، أو هكذا كان يُقال، والمقصود بأن المياه قد أصبحت في أحضان القاطنين المساكين النائمين (أتذكر مثلاً تلك الصحون و«الطشوت»[1] من مختلف الأنواع والأحجام وهي موزعة في نواحي الغرفة كي تجمع مياه المطر الذي تسرب من خلايا الجدران الطينية). وعلى أية حال فإن تلك البيوت كانت هشة جداً، فهي كالأعواد وظلال الأشجار الكثيفة أقرب إلى الطبيعة منها إلى العمارة. إنها بلا عمال بناء، فالجميع يفعلها. ينزعون حصاة أو نبتة أو كومة طين من هنا أو هناك ويبنون. حتى أنه – حسب تحليلي – لم يبدأ «الاستاد»[2] (بالدال) أو عامل البناء إلا مع الإسمنت. أما قبل ذلك، أي مع الطين، وبالتأكيد مع السعف، فإن ذلك الشيء المسمى منزلاً يُبنى بتمدد العائلة ومساعدة الجيران.

يجهزون «دلال»[3] الشاي والقهوة (المشروبات الروحية لتلك الأزمان) ويتنادون فتظهر البيوت من حركة أيديهم كما تنسج ألسنتهم الحكايات. فالبيت هنا أقرب إلى كونه لعبتك أو أنشودتك، سمّها ما شئت. وهو لذلك لم يكن مفتوحاً على الجيران (بجدرانه المنخفضة وأبوابه المشرعة على كل سكة) فحسب، وإنما على الحياة، حياة العالم.

---

(1) جمع طشت أو طش: إناء كبير.

(2) «الاستاد»: تُطلق على البنّاء، وهي أقرب إلى «المعلِّم» (كما تستخدم في كثير من المجتمعات العربية)، وفي هذه الحالة «معلِّم» البناء.

(3) جمع «دلة»: وعاء لحفظ وصب القهوة.

ففي الحوش وحتى في الغرف تجد الماعز طبعاً والأبقار والحمير، إضافة إلى القطط والكلاب و«الصفاصيف»[1] وما يمكن تدجينه من الحيوانات أو الطيور. وكان من الزوار كذلك «الصفارد»[2] وأمهات أربع وأربعين وخيول إبليس[3] وزائر النهار الذي نادراً ما يغيب: الغراب (كنت أتساءل حينها ودائماً: أين تذهب الغربان في الليل؟).

وفي الليل تزور البيت أو نواحيه المفتوحة وباستمرار الثعالب والقطط البرية. وفي السنة على الأقل تُرزق البلدة بذئب فيسيل لعاب القَصص التي يُطلقها الخوف الراقد في الصدور.

يزرع في البيت كذلك النخل المنتقى والليمون بأنواعه (بعضه كبير إلى درجة التي بإمكانك أن تتخيله صخرة جبلية صغيرة خضراء) والمانجو بأشجاره الطويلة للغاية، والتين (ماذا يشبه التين؟)، وعديد من الأبصال والخضروات (خضروات البشر وخضروات الحيوان)، وتنحني على جدرانه السدرة القديمة واللوزة الجامحة والسماء الفارغة من الغيوم.

الطماطم تتناثر قرب أحواض الغسيل ونباتات لا حصر لها تمشي في الفناء. وثَمَّ نباتات أخرى تزور البيت وتجلب من المزارع أو الجبال كأعلافٍ أو كأدوية.

---

(1) جمع «صفصوف»: نوع من العصافير الصغيرة، وفي الفصحى: صفصف.

(2) جمع «صفرد»، نوع من الطيور، وهي فصيحة.

(3) نوع من الحشرات.

كان كل شيء من حول البيت في البيت، تسمع صرخات آخر جار كما تسمع أخباره وأنت قابع في غرفة البيت الوحيدة، خلف الباب الوحيد المغلق في هذا البيت.

وإذا لم يزرك جارك، زارك أطفاله أو أغنامه، والشمس تزورك كي يلتقط الدجاج الحَب من سطوع الصباح ويزورك القمر كي تُختم به عيون السهر وتُنهى على تهادي ضوئه السعيد الحكايات.

-3-

بيت من هذا النوع يمكن تسميته، ولهذا سمى أبي بيتنا بـ«المعترض»، وهي تسمية سائدة في المنطقة وتُطلق على أحياء ومنازل عديدة. ولهذا البيت بالذات كانت التسمية ذات وقع خاص.

هذا البيت الذي تتوسطه «شريشة»[1] أنفقت أنا شخصياً سنواتي الأولى على الأرض بين ظلالها بلا سأم، وتطوف ذاكرتي دوماً حول مخيالها كما يطوف التائب حول الكعبة.

وحول تلك «الشريشة» كانت تتوزع، وبعد رمل صافٍ، زوايا البيت الأربع. حفرة يسيل ماؤها من تحت الجدار إلى خارج البيت ويسترها «دعن»[2] واقف يمكن أن نُسمِّيها حمّاماً. أما ما يمكن أن يشبه المطبخ فيقع في الزاوية المقابلة حيث تتناثر أمامه الطوابي

---

(1) شجرة ظليلة، وتسمى في بعض المناطق العربية بالنيم.

(2) صف ملموم من الجريد يستخدم كجدار أو سقف، والجمع: «دعون».

والقدور والمواقد.

الزاوية التي تقابل المطبخ خصصت للزراعة. يزرع فيها «الفندال»[1] وبعض الخضروات، لكن الحظوة أبداً للنخل، فقد زرع أبي هناك بضعة أنواع منتقاة من النخل، بينما تتدلى من هذه الزاوية على جدار الخارج سدرة طويلة. وثم غرفة مستطيلة في الزاوية الأخيرة هي وحدها التي بُنيت من الطين. إنها غرفة المبيت، ولكنها ليست كذلك أيضاً. فمبيتنا فيها لا يتعدى الشهور القليلة الباردة والممطرة، أما في بقية شهور السنة فننام خارجها أو حتى على سطحها.

وبعد أن سافر أبي في رحلات بحرية متكررة إلى أفريقيا والهند والكويت وغيرها عاد وبناها من الإسمنت. وأظنها كانت تنقسم إلى قسمين، الأول غرفة بالشكل المعتاد وأخرى تُدعى محلياً بـ«الكرين»[2]، وهي نوع من الغرف كان يُبنى من السعف ثم طُوِّر لاحقاً ليُبنى من الطين ويسقّف بـ«الكندل» وغيره، وكانت على هيئة خيمة، وكانت الغرفتان مفتوحتان على بعض.

... ولعلَّني وُلدت في «غرفة الكرين» تلك.

ولم يكن فيما أُسِّميه بالغرف هنا نوافذ ولا مرايا. فقط بضعة مستطيلات محفورة في الجدار يُطلق عليها اسماً جميلاً هو «الروشنة» وتوضع فيها الأواني المفضلة، كما يوضع فيها الزعفران والعود

(1) «الفندال»: البطاطا الحلوة، والمفردة على الأغلب غير عربية.

(2) غرفة أقرب إلى «العريش» المسمى بخيمة البحر إلا أن جدرانها من طين.

والمسك و«الدخون»[1] وزجاجات العطر إن وجدت. وتبدو تلك النافذة المعلَّقة والمغلقة ملفتة أكثر حين يستلقي فيها الأطفال الرُضع إلى حين تعود أمهاتهم من جبال العمل في البيت، ولا يسقطون.

أما أرضية الغرفة فليست بمبلطة، على الأقل قبل الإسمنت، وتُفرش بحصير من سعف أولا تُفرش إطلاقاً.

لهذا فإنك في غرفٍ كهذه على تراب الأرض، على كثبٍ من تراب الأرض، تعيش معك حشرات وطيور وزواحف، وقد تظهر عند فراش نومك بعض الحشائش.

ولعل الطفل أو البالغ من الأطفال وفي مثل هذه الغرف ليس بإمكانه أن يعيش أي نوع مما يُسمى الخصوصية، فأنت لا تسمع وترى ماذا تقول أو تفعل عائلتك فحسب، وإنما يصل إلى مسامعك ما الذي يحدث عند الجيران، سواء سمعت ذلك من البيت، أو أثناء مرورك في السكة أو الزقاق.

وعموماً فإن تلك الأيام لا تعترف بالخصوصية، فالجميع يعرف عنك كل شيء، وأنت تعرف كل شيء عنهم، وهذه المعرفة هي ما تتناوله الأحاديث في الصباح عند «الفوالة»[2] أو عند «فوالة» العصر. في المساء عندما يتسامرون، أو عند الولائم. عند ولائم الأعراس أو في العزاءات حين ينفجر الضحك فجأة في وجه الوجوم.

(1) عجينة خليط من العطور والعود والمسك.

(2) «الفوالة»: تمر أو وجبة من المأكولات الخفيفة أو الحلوة تقدم عادة مع القهوة لزائر البيت، وربما جاءت من الفأل.

من هنا يمكن القول بأن مثل هذه الحياة لا تعرف الصمت والتأمل بالقدر الذي لا تعرف فيه الخصوصية. فمن يصمت ويسرح يقال له: هل غرقت مراكبك أيها «النوخذا»[1]؟ أما من يجلس ليحسب الغيوم أو يعد الأمواج فإنه بلا شك قد جُن أو أوشك، هذا إذا لم تظهر على روحه الثآليل، ويصاب بالجدري أو الطاعون.

-4-

في بدء مجيء الإسمنت كانت الجدران التي توشك أن تكون أسواراً تُدهن بمادة تُسمى «النورة»[2]، وفي الأسفل كان هنالك مستطيل بمقدار ربع الجدار ملون إما بالأزرق الفاتح أو الأخضر الخفيف وكانت الجدران بهذه الألوان مخففة لنظرة الشمس الحادة والغاضبة، وتبعث على الدفء في الشتاءات.

في الشتاءات القليلة والعابرة حين كان الأهالي يكتفون بالاختباء في غرفهم الطينية (أو الإسمنتية بعد ذلك) واشعال مجمرة، والتدثر ببعض الألبسة الشتوية البسيطة: «كندورة»[3] غليظة و«غترة»[4] ثقيلة حمراء.

إن تلك البيوت التي لا تشبه أية بيوت، والتي هي تحديداً بيوت

---

(1) «النوخذا»: ربان السفينة.

(2) نوع من أنواع الجص الأبيض تدهن به الجدران.

(3) الثوب للنساء والرجال معاً.

(4) غطاء الرأس.

ما قبل البيوت، مليئة بالمحفوظات والمُخَزَّن. مليئة بالبذور والنباتات الجافة، ومليئة بالقدائد من اللحم أو السمك للأيام السوداء القادمة، وهي كثيرة على أية حال.

وكان المعدوم والفقير تتناثر محفوظاته في غرفه الطينية أو زوايا حوشه، أما من يستطيع فيبني غرفة للمُخزَّن تدعى «بخّاراً»[1]، ووقتها إذا ما كان أحدهم يريد أن يعلن بأنه أصبح غنياً فإنه يبني «بُخّاره» خارج البيت، وإذا ازداد غنى وضع عليه حُراساً، فللأغنياء «مطارزية»[2] كما الشيوخ.

أما عن السطوح فحدّث ولا حرج، فهي مكان للمبيت في الصيف حيث تتوالى «السوالف»[3] والحكايات قريباً من الأذن المفتوحة والكبيرة للسماء، كما كانت تجفف على تلك السطوح أحلام المتعبين وضحكات الأطفال، والأعشاب التي ستغدو أدوية، والأسماك الصغيرة والكبيرة لتكون «مالحاً»[4] أو «عوالاً»[5] والأسماك التي تتحول إلى عصائر، وعذوق الرطب كي تُداس ويجري من تحتها «الدبس»[6]، أو تغدو «حشفاً»[7] في منتهى الضمور.

(1) يقال لها في مناطق أخرى من الإمارات ينز.

(2) جمع «مطارزي»: مرافق الشيخ.

(3) الأحاديث، وخاصة التي تروى عما سلف، وعمَّن سلف.

(4) طريقة في تخزين السمك بالملح.

(5) «العوال»: فصيحة، سمك القرش الجاف.

(6) عصير التمر.

(7) التمر اليابس وغير النافع.

ويبدو لي بأن مثل هذه السطوح بدأت على الأرجح مع الطين، إذ ليس بمستطاعي تخيل أن ينام أحدهم على سطح «عريش»[1] مثلاً، لكن تقليد «الحياة على السطح»، إذا ما صحت التسمية، اكتشفها أهل هذه المنطقة قبل وقوف جدران الطين. إن الشاهد على ذلك ما يُدعى إلى يومنا هذا بـ«المنامة»[2]، وهي مرتفع من جذوع الأشجار (بعضهم بعد ذلك استخدم البراميل) تُسقف بأخشاب متقاطعة وتُغطى بـ«دعن» تُفرش عليه حصائر وما توفر ولان من الأثاث.

كان يُجفف أيضاً على هذه «المنامة» كل ما يريد هذا الشعب إدخاله جنة التجفيف، وكان يُنام عليها بمتعة لا حد لها فالصباح يستيقظ معك على تلك «المنامة»، وعلى تلك «المنامة» كانت تُنفق برضا ليالي الصيف الطويلة. على تلك «المنامة» التي تكاد أن تكون في الليالي المقمرة سفينة عائمة في بحر الحوش.

أي حوش؟ قبل الطين لم يكن هنالك حوشاً. كان هناك ما يسمى «بالحضار»[3]. و«الحضار» مجموعة من الأغصان الجافة، بل خط من هذه الأغصان ذات الأشواك المدببة والتي كانت تسوّر فيها أرض ما فتوضع عليها اليد وتضم وتغدو حمى، ولتغدو حمى تزرع داخلها

---

(1) غرفة من جريد النخل، وهي فصيحة مما يعرش به.

(2) بعض الأماكن والمدن والقرى في الخليج والجزيرة تسمَّى كذلك باسم «المنامة» منها عاصمة البحرين الحالية وقرية تابعة لإمارة عجمان تقع بين الذيد ومسافي.

(3) «حضار»: ما يحيط في البيت كالسور، وهي فصيحة: مما يحظر الدخول إليه، وقريب منها: الحظيرة، والحظرة البحرية (طريقة صيد).

خيمة من الوبر أو غرفة من السعف أو ما شابه. وعندما بُنيت تلك المواطئ (بدلاً من تسميتها منازل) بالطين. سوّر «الحضار» زرائب المواشي خلف البيت الطيني أو أمامه بينما مضى الإنسان في رفع الجدران حول روحه.

البعض القادر كان يُلط الجدار الطيني بالجص، أما «التحضر»، كما يُسمى اليوم، فقد جاءنا مع تلك الآلات العجيبة التي تُنجب كُتلاً تدعى بـ«الطابوق»، ومع الخلاطات التي تعجن مادة مائعة لتشتد لاحقاً وتصير إسمنتاً وتبعث على الاختناق. فأحفاد البدو الرُحل هؤلاء، أو الذين كانوا بدواً ورُحلاً لم يكتفوا ببناء جدران الإسمنت ومن ثم الأسوار الطويلة والعريضة والبشعة حول مساكنهم وإنما سوّروا لاحقاً كل شيء..

المقبرة والحديقة والبحر والسماء.

المديفي

-1-

خورفكان، ذلك الميناء الصغير، المغلَّف بالجبال، الشبيه بالقوقعة، أو بيضة ديناصور صخري منقرض. الميناء الآمن الذي كان يعثر عليه البحارة حين يخرجون من غياهب مضيق هرمز وحبائل الجنية «سلامة»[1]. ويعثرون عليه حينما توصلهم الرياح قريباً من هذا المضيق قادمين من الرهيب المحيط الهندي، مشتهين ترك سفنهم في خور ما لتذكر الابتسامة والضحك، كما المشي على الأرض.

لهذا فمن الطبيعي أن أجد عند استيقاظي من تلك الطفولة بشراً متنوعين في هذا الميناء: شحوح، نقبيون، بلوش، عرب تركوا ديارهم في الساحل الجنوبي (الذي يتبع إيران الآن) وفرس، وجاؤوا إلى خورفكان.

كل هذا في بلدة صغيرة. بلدة كأنها يد وحيدة للجبال بسطتها ببخلٍ كي لا يأكل أصابعها البحر، وبالرغم من ذلك فإنه يأكل. يأكل بنهمٍ من ذلك الصحن الرملي الفارغ.

---

(1) مجموعة من الرؤوس الصخرية الناتئة في مياه البحر والجزر الصغيرة عند مضيق هرمز، وتسمى الجزيرة الكبيرة من هذه المجموعة بجزيرة سلامة ويُقال سلامة وبناتها. ولقد كان الجغرافيون والرحالة والإخباريون القدامى كابن الفقيه والقزويني والمسعودي والحموي يطلقون على هذا الموضع تسمية الدردور لما كان يشكله من خطر على السفن الخشبية التي كانت تعبر المضيق، كما وتدور حكاية خرافية حول سلامة الجزيرة وبناتها، إضافة إلى ارتباطها بمثل عربي قديم يتواتر في معاجم الأمثال التقليدية (حول سلامة والدردور اقرأ أيضاً صفحة 133 و114 من هذا الكتاب).

وفي صورة فوتوغرافية التقطها لخورفكان مصور مجلة «العربي» الكويتية المعروفة[1]، في وقت ما من عام 1968 يظهر رجل يلبس «غترة» حمراء و«عقالاً» ويشيرُ إلى جهة ما من وسط خورفكان، بينما يستبد بالصورة مرآى جبال «الخور» الشمالية وفي أحضانها جبال «الشرق»[2] – هكذا كانت تُسمَّى – مخضرة، وبيوت أحياء الخور الرئيسية تظهر بيضاء متناثرة بين ذلك النخل.

المصوّر الذي التقط تلك الصورة اصطحب معه ثلاثة أشخاص بمن فيهم صاحب «الغترة» الحمراء وصعدوا «جبل سيده» (الذي اعتلى رأسه بعد ذلك قصر لحاكم الإمارة)، ذلك الجبل الذي تروى في الحي عنه الأساطير[3].

على اليمين وفي مقدمة الصورة يظهر حيٌّ صغير ومجموعة قليلة من البيوت.

---

(1) مجلة العربي واحدة من أهم المجلات العربية في السبعينيات وحتى منتصف الثمانينات، وهذه المجلة كانت تخصص زاوية يتابعها قراء هذه المجلة الكثيرين وقتها، وكانت هذه الزاوية بعنوان: اعرف وطنك – أي وطني العربي الكبير حسب المجلة – بمقابل زاوية اعرف عدوك، والمقصود هنا إسرائيل على وجه الحصر، ولقد زار فريق من هذه المجلة منطقة عربية مجهولة حينها هي إمارات الساحل المتصالح (الإمارات العربية اليوم) وقدم تحقيقات عديدة عنها. إلا أن ما يعنينا هنا تحقيقان زار فيهما محرر المجلة سليم الزبال خورفكان، ونشر الاستطلاع الأول في 20 يوليو 1960، بينما نشر الثاني في 14 مايو 1968، والصورة التي يتحدث عنها الكاتب رافقت الاستطلاع الثاني.

(2) «الشرق» بين قوسين هنا لأنه كان حياً رئيسياً في خورفكان. ولقد أزيل الآن ووضعت بدلاً من بيوته الحاويات القادمة من الميناء القريب. أضحى مخزناً للحاويات.

(3) عن «جبل سيدة» أيضاً يمكن قراءة ص 36 وص 127 من هذا الكتاب.

إنه هو. إنه حي المديفي.

ولأن هذا الجانب لا يزيد عن عُشر الصورة أو أقل، ظهر الحي كالهلام. ومن هذا الهلام لم تكن تبدو إلا تكوينات بيضاء وأخرى سوداء كأنها ثقوب.

البُقع البيضاء، كما افترض، هي البيوت المبنية بالإسمنت والمدهونة بـ«النورة». أما تلك التي تبدو في الصورة كالظلال فإنها البيوت المبنية بالسعف أو حتى بالطين (هل لأن الصورة الفوتوغرافية حديثة وبالتالي تميل ميلاً «غريزياً» لكل ما هو حديث؟).

أكاد من البقع البيضاء أن أعرف من هم أصحاب تلك البيوت، وتلك الظلال الهلامية أعرف، وأعرف كذلك كيف تمدد الحي لاحقاً. فلقد كنت أكبر والفراغات الشاسعة التي تحيط بالحي تضيق. حتى ضاقت جداً، ضاقت حتى مُحيَ الحي نفسه.

بعد أن فكرت بهذه الصورة المكبّرة هكذا، عدت من جديد إلى زميل يعرف بالتصوير الفوتوغرافي لعله يساعدني على تكبير تلك البقعة التي كان يقع فيها البيت الذي ولدت فيه (أمر فاتن أن أرى ذلك البيت – حتى في صورة فوتوغرافية – وبعد ولادتي بأربع سنوات).

لكن زميلي قال لي:

– ... لو كبّرنا هذا فلن تر إلا مجموعة من النقاط.

مجموعة من البقع، مجموعة من النقاط! هكذا ردّدت بيني وبين

نفسي، ثم عدت إلى الصورتين. تلك الملتقطة من مجلة «العربي» وتلك التي «كبّرناها» لحي المديفي. وقضيت وقتاً طويلاً وتأملياً في المقارنة بينهما.

يا ترى عماذا أبحث في الصورة؟

هل أبحث عن حياتي التي عشتها، عن بدايات حياتي في ذلك الحي؟

هل أبحث عن أرواح أولئك الأشخاص الذين كانوا أكثر من أهلي؟

كنت في بحثي هذا أشبه المصوّر في فيلم «Blow up» لانطونيوني (عن قصة لخوليو كورتزار)، رغم أن تفتيش «مصوِّر» الفيلم المتلهف ومقارنته بين الصور يقوده فضول إنساني لاكتشاف خيوط محبوكة بغموض لجريمة، وأنا لا يمكنني – تقديساً للحياة – اعتبار ولادتي في ذلك الحي جريمة.

–2–

جاء أبي عن طريق البحر كي يتزوج أمي في خورفكان، لهذا حسبتني على الدوام ابن مصادفة بحرية. وعلى الأرجح فإن أبي حين عَمِلَ «سكونياً» يديُر الدفة (أو «سُكَّان»: مقود السفينة)[1]، عَمِلَ عند النوخذا الميرزا من نواخذة خورفكان. وبحارة خورفكان أظنهم أول

(1) «السكّان»: ترد هذه الكلمة في المصادر العربية القديمة بهذا المعنى أيضاً.

من توسط لأبي كي ينال الموافقة السامية لجدي وأمي على الزواج.

لكن الذي كانت مساهمته حاسمة رجل يتاجر على حمار بين دبي وخورفكان.

ولعله يطيب لي، وبالوكالة عن أمي، أن أسهب في تصور ذلك الرجل على حماره وهو يقطع الساحل الشرقي ومن ثم يتوغل في الجبال متمرجحاً على أطراف وديان ضخمة وسحيقة كوادي حام والسيجي وغيرها[1]. مترنحاً على كثبان الذيد ورمال الصجعة حتى يصل إلى الشارقة[2]. ثم ومن هناك (بعد أن يمر على مقهى «بيزات»[3] ويشرب كأساً من الشاي) إلى دبي حيث لا يترك أحداً في الشندغة[4] أو السبخة إلا ويسأله عن أبي وأصله وفصله. وعندما يجمع كل المعلومات والشهادات عنه، يضعها بأمانة في خرج ذاكرته ويعود قافلاً (كما يقولون، لكنني في الحقيقة أتخيله عائداً وحده)، وبعد أيام وليالٍ طوال إلى خورفكان كي يزكي ذلك الزواج المبارك.

(1) من الوديان الكبيرة والمعروفة في «جبال الحجر» الفاصلة بين مسافي والساحل الشرقي (الفجيرة، خورفكان، دبا....الخ).

(2) هذه الأماكن يمر عليها المسافر (المسافر على الأقل وقتها) بين الساحل الشرقي المطل على بحر عمان (المحيط الهندي) ومنطقة عجمان والشارقة ودبي المطلة على الخليج العربي. وكان أهالي الساحل الشرقي يسمون تلك المنطقة بـ«الساحل».

(3) يرتاد هذه المقهى في السبعينيات الذاهبون إلى الساحل الشرقي والراجعون منه حيث يعثرون هناك على سيارة للأجرة أو للتوصيل. و«بيزات» تعني نقود في اللهجة المحلية.

(4) الشندغة والسبخة من المناطق المعروفة في بر ديرة (دبي) وكان يسكن فيها أهل الكاتب من جهة أبيه.

من هنا فإنه لا يبدو لي من المصادفة في شيء مجاورتنا في حي المديفي لعائلة ذلك الرجل، بل لعله من أقنع العروسين بعد ذلك بالانتقال الى هذا الحي الجديد.

كانت زوجته حليمة هي من اعتنت بي وأنا صغير، بينما كرست أمي عواطفها واهتمامها لبقرة كانت عندها حينئذ.

كذلك كان زوج حليمة أول ميت أراه.

ففي أحد الصباحات كنت خارجا من البيت (كنت في العاشرة تقريباً) فرأيت سيارة تقف خلف باب بيتنا (=الجبلي) وتخرج منها قدمان منتفختان وجامدتان.

نظرة سريعة ألقيتها فحسب على السيارة وفجأة هب صراخ عاصف من بيت جيراننا، أتذكر ذلك بوضوح الذاكرة الموارب، ويصل خيط التذكر حتى ذلك الصراخ، حتى ذلك الصوت المفجع، وبعدها يختفي كل شيء في بئر الذاكرة المتحرك.

حقاً كان من الندرة أن ترى سيارة في حيِّنا، لكن ما لا أفهمه لحد الآن: لِمَ كانت تلك القدمين ظاهرتين في الخلف من سيارة «البيكب» المكشوفة. لِمَ؟

وما لن يُفارق روحي أبداً تلك اللحظة حين تعرفت على الموت وحسيّاً ولأول مرة من خلال القدمين اللتين قطعتا المسافات كي تشاركا في الاتيان بي إلى الوجود، أو كما افترض. فذلك الرجل الذي كان يُتاجر على حمار بين خورفكان ودبي، عاد من دبي

بالذات ميتاً على ظهر «كبشة».

أو كما كانت تسمى السيارة عندنا حينها.

–3–

ما أدعيّه من كوني ابن مصادفة بحرية هو في الحقيقة شبكة معقدة من المفارقات، فمثلاً: عاش أبي كتوماً ومنطوياً على نفسه وكأنه يحمل في داخله سراً لا يمكن الإفصاح عنه، وبقليل من الملاحظة يكتشف المرء بأن ذلك السر لم يكن إلا حبّه الجارف للبحر.

أما أمي فهي من عائلة جمعت بين حرفتين أو عالمين: مزارعين وصيادي سمك، وأحياناً «سفّارة»[1]. وعلى الأغلب فإن انتقال والديْ (المتزوجين حديثاً) إلى حي «المديفي» جاء إثر نكبة حقيقية حدثت لعائلة أمي حين غرق في أثناء العودة من أحد الأسفار قبيل زواجهما عدد كبير من رجالاتها.

أحدهم كان زوج خالتي وقد ترك وراءه أيتاماً كثراً تكفل جدي – كما سمعت – بإعالتهم، ولم يكن قادراً على الاهتمام بأمي المتزوجة حديثاً مما شجع، على ما يبدو، الزوجين الجديدين على الانتقال. حيث يمكن بعيداً عن ضغط الماضي، الشروع في حياة جديدة.

ولمفارقة حياتي، أو ما أسميه مفارقة، تجلياتها الكثيرة والمتعددة،

---

(1) «سفَّارة»: تطلق هذه التسمية تحديداً على البحارة الذي كانوا يعملون على السفن الخشبية التي كانت تسافر بين الخليج والهند وأفريقيا.

والملقاة بشباكها الكثيفة في عمق مياهي الداخلية. ومن تجليات هذه المفارقة مثلاً ما يتعلق باللهجة، ففي بيتنا كانت تتشابك وبوئام شائك، لهجتان قريبتان ومختلفتان في آن.

لهجة أمي المحتكّة بالجبال والتي هي أقرب إلى الصوت الذي تصدره القدور حين ترتطم على الصخور في وادٍ تهدر فيه الريح، وذلك بموازاة لهجة أبي الساحلية، أي تلك التي كانت مملوءة برمال الصحراء، واستطاعت أمواج الماء الكبيرة أن تغسل من تلك الرمال ما استطاعت.

أكثر من هذا فإن طفولتي قد شهدت غياب أبي في أغلب سنيها وحضور أمي. حضور أمي بعيداً عن أقاربها الساكنون هناك في أحياء خورفكان القديمة، وبالطبع بعيداً عن أقارب أبي القاطنون في دبي، دبي التي كانت خلف الأفق.

أكثر من هذا فلقد كنت بلا أخوان ولا أخوات، كنت وحيداً تحت تلك «الشريشة» الغامرة، في ذلك الحوش الواسع، وحيداً في المعترض، في المديفي، في خورفكان، في ذلك الفضاء الفارغ.

أكثر من هذا فقد كنت ملتهباً في الداخل، منطفئا من الخارج، أو هكذا كنت أظن.

-4-

وضع أبي يده على أرض، سوّرها بجريد النخل وبنى بضعة «عرشان». بعد ذلك تحول «الحضار» الذي أحاط بـ«العرشان» إلى جدران طينية ومن ثم إسمنتينة.

هذا هو تاريخ «بيتنا».

وكان لذلك البيت ثلاثة أبواب:

فمن أبوابه باب جانبي يطل على سكة ضيقة، وكان يطل بالمقابل باب لبيت جيراننا أيضاً. وكنا كصبية ندخل من باب الجيران ذاك ونخرج من بابهم الآخر المطل على باب أو جدار بيت آخر.

هكذا كان بإمكاننا أن نقطع أكثر من ثلاثة بيوت أو «سكيك»[1] تماماً كأننا نمرح في بيتنا الشخصي.

طبعاً يحدث هذا إذا ما أردنا دخول البيوت من أبوابها. فالأقل شيطنة منا ماهرون في امتطاء الجدران وهي طريقة ركوب بإمكانك أن تجوب فيها الحي كله كي تصبح وتمسي على قاطنيه وخاصة في اللحظات التي لا يتوقعون فيها أحداً.

من مآثر الأحياء القديمة تلك الأزقة، طويلها وقصيرها، متعرجة ومتداخلة. وحين تمشي فيها، تمشي وكأنك الدم في العروق.

ضيق ينفتح على فُسَح، فُسحٌ تذهب إلى الشِّيق من الضيق. تذهب إلى النوم. إلى النوم في الطَمأنينة.

---

(1) جمع «سكة»: الزقاق الرملي.

في تلك الأزقة كنا نتعلم ما لا نستطيع تعلمه في البيت، ولكن قبل هذا وذاك كانت فردوساً للعب. ولك ان تستنزف مخيلتك كلها في ابتكار ألعاب لنهار الزقاق وليله. سواء كنت في هذه الأزقة وحدك، أو مع أقرانك من الصبيان والبنات.

حفاة، جُهَّال، مغفلون وصغار نتدربح[1] من سكة إلى سكة ومن بيت إلى بيت. نمشي خلف الغرباء والمجانين ونركض خلف الدّراجات والحمير. نسرق من هذا البيت آخر ما باضته الدجاجة ونملأ عيون اولئك بالتراب.

وجوه عجيبة كانت في ذلك الحي: راشد الباطني الرّاعي، سيف البناء، قوم «خرابيط»، قوم «الصربة»، بيت «الغرّابة»، والزوجان العاقران، وعمنا بلال الذي كثيراً ما يُصيب زوجته سندية الصرع فتسقط وهي مليئة بالشحم الأسود بين جموع النساء عند شاي العصر أو حين نحيط بها ونطرح عليها أسئلتنا الشائكة عن الجن وكيف يركبونها. «من قال لكم ذلك»: تصرخ بنا صرخة تهز الأشجار لتسقط بعدها مجدداً في الصرع. القادمون الغامضون من الباطنة[2]، والشباب الذين يجيئون ويذهبون في الليل وهم يتمايلون مرددين آخر أغاني علي بوروغه[3].

---

(1) «الدربحه»: التدحرج.

(2) الباطنة: الإقليم الساحلي المطل على بحر عُمان (المحيط الهندي) من مسقط وحتى كلبا وكانت تسمى المنطقة الممتدة من كلبا وحتى مسندم قديماً بـ«الشميلية».

(3) مغنٍ معروف، رسخ إنشاد القصائد النبطية والعامية على العود بعدما كانت يرفع =

وكل بيت يختلف من حيث عالمه الداخلي ونكهته عن البيت الآخر. ولأن الحي صغير فإن كل الصغار يتحركون في قطيع واحد من الصباح وحتى المساء. وما دمت تعرف صغيراً أو صغيرة فإنك تدخل بيتهم دون أي وجل وتبقى هناك إلى ما شاء الله. أو إلى أن تأتي أمك التي تكون قد جابت الحي كله بحثاً عنك وتعثر عليك هنا وتحملك كما تُحمل أكياس القمامة وتعيدك إلى البيت.

البيوت التي تبقى مستعصية علينا بيوت الوحيدين والتي لا صغار فيها. خطط لا تحصى نضعها موضع التطبيق، المهم أن نقتحم تلك البيوت، عبر الأشجار، عبر الجدران. بأية وسيلة ندخل إلى دوائر العزلة تلك ونفتشها بعيوننا ونفعل بأصحابها – إن وجدوا أثناء اقتحامنا – الأفاعيل.

ولأن الحي كتلة واحدة (كأنهم يخافون من شيء ما فارتصّوا هكذا) فإنه محاط من جانبيه الشمالي والجنوبي بمساحات. المساحة الشمالية نسميها «الغليلة»[1]، والمساحة الجنوبية ممتدة حتى «جبل سيده». هذا فيما عدا «البراحة»[2] الصغيرة خلف المسجد[3].

= بها الصوت وتغنى على الربابة. وقد كان ذائع الصيت في السبعينيات إلا أنه اختفى بعد ذلك واختفت أشرطته من الأسواق حتى الآن ولأسباب مازالت مجهولة.

(1) «الغليلة»: المياه الراكدة والآسنة.

(2) «البراحة»: المكان المفتوح، والمفردة فصيحة.

(3) للمسجد دور وموقع محوري في حياة القرية، اقرأ عن هذا المسجد بالذات في ص 117 وص118من هذا الكتاب.

حول تلك «البراحة» يسكن العجيب محمد وزوجته شيخة العاقران كذلك. بعدها بيت «خرابة» (أي مهجور) ثم بناء مندرس كنا نسمع منه صوت أفراخ «أم الصبيان»[1]، ومن ثم خلاء شاسع يمتد حتى «جبل سيده». من ذلك الخلاء لعلهم كانوا يستخرجون الملح فيما سبق ويكومونه كتلاً من اللؤلؤ الرخيص كي يتلألأ تحت الشمس. أما الحكايات عن «جبل سيده» فإنها لا تنتهي. فالأميرة جاءت من أقاصي الأرض كي تسكن هذا الجبل الأجرد، وأمام قصرها الذي سرقته السماء كانت تربط خيولها الحمراء والزرقاء، والبئر الذي حفرته في رأس الجبل ينضح ماء عذباً يشبه حليب الملائكة.

الخيول الملونة لم تُرسم حتى على الأقمشة، ولم يعد للبئر من دور إلا أن يكون فخاً تسقط فيه أغنام الحي متسلقة حتى هناك، معتبرة هذا الجبل من أقصر الجبال.

—5—

في الجهة الشمالية تقع «الغليلة»، ويُقال لها «غليلة» لأنها مجرى جاف تجري فيه الأمطار عند هطولها ويركض البحر في «سبختها» عند فيضانه. ولهذا السبب ربما كانت البيوت التي تجاورها تكدس في

(1) «أم الصبيان»: جن معروف عند العرب منذ الجاهلية، ولقد توقف الجاحظ في مدوناته كثيراً عند هذه «الشخصية» بالذات. وفي المنطقة «أم الصبيان» جنية تكفخ الصبيان فيعتقد كثير من الأهالي بأنها السبب الرئيس في أغلب أمراضهم، كما أنها في نفس الوقت جنية خرائب حيث يسمع من الأبنية والمواقع المهجورة وقوقة «صبيانها»، أو صغارها.

منتصفها القمامة. ولم يكن يحلو لنا نحن الصغار إلا اللعب هناك.

البقعة التي ترمى فيها القمامة يقال لها: «صِّنِّية». وحيث «الصِّنية»[1] يجتمع الصغار. لا أعرف ما الذي كنا نجده في ذلك الركام العفن من الأشياء المتفتتة من الاستعمال، والطين المسود، وبقع من مخلفات الحياة والحيوانات والبشر.

مستغرقون في خلاَّبٍ ما في تلك القاذورات، منهمكون في انشغالات واشتباكات ونوازع توشك على الظهور والتبلور في قيح الحي ذاك، وأحلام لا تحصى تتشكل من ذلك الغبار الميت. وعندما تغرب الشمس تأتي الأمهات أو الآباء أو الاخوان الكبار كي ينتزعوا صغارهم من ذلك الظلام النتن. ينهرونهم، ينظفونهم، وبعد ظهر الغد سيعودون بالتأكيد (إلى أين سيذهون إذا لم يعودوا) إلى ذلك المطهر كي تتشابك الأيدي في اللعب، وأرواحهم في الوهم. أما حين يفيض البحر، حين يغضب، وتنطلق مياه غضبه بالاتجاه المعاكس نحو الجبل، فإن محتويات تلك «الصِّنية»، محتوياتها الثمينة تطفو، كالأحجار الكريمة، وعلى ذلك الماء العكر.

نسبحُ في ذلك البحر «الميت». تتمزق لهفات أصابعنا خلف ومع وبين تلك الأحجار الكريمة الطافية. نصطاد أيدينا، أو أيادينا لا تصطاد شيئاً إلا أيدينا، لا تصطاد إلا الماء الأسود، إلا الأحجار الكريمة القذرة والطافية على ذلك الماء الأسود.

---

(1) «الصنية»: القمامة، وربما جاءت المفردة من «الصنان»: رائحة الإبط.

نغرق وقوفاً على أقدامنا في ذلك الماء العكر، نطير ونحن الراكعون على تلك القذارة الضحلة، نضحك فتسمعنا الجبال، نتعارك فيزداد البحر زبداً، وتقف الأمواج على أقدامها كي تتفرج.

وحدثت في «الغليلة» حادثتان، أنا بالذات وكثير من أقراني ليس بإمكاننا نسيناهما.

استأجر في الحادثة الأولى أحد جيراننا العائدين من الكويت سيارة. وكنا في ظهيرة ذلك اليوم نلعب عند أعالي «الغليلة» قرب البحر. رأيناه وهو راكب في الخلف يحتضن بيده صندوقاً أبيض، وفي اليد الأخرى يلوِّح بـ«غترته».

ركضنا نحو السيارة، وعندما تقدمنا ركضنا خلفها. عددنا يزداد كل لحظة، وركض خلفنا الرجال والنساء والكلاب والذباب.

موكب مهيب أوصل السيارة والصندوق وجارنا الذي يلوِّح إلى باب بيته.

انطلقت الزغاريد والصرخات. أُنزل «الصندوق الأبيض» من السيارة وأُدخل مُعززاً مكرماً إلى المنزل، ووضع في مطبخ بُنِيَ خصيصاً لاستقباله. لاستقبال ذلك الصندوق الذي عرفنا بعد أن تركناه واقفاً هناك بأنَّه يُسمى: «ثلاجة».

إذن كان ذلك الموكب بمناسبة دخول أوّل ثلاجة إلى الحي، لكن أمر الثلاجة لم يتوقف، على الأقل بالنسبة لي، عند هذا الحد.

أبي، بعد يوم أو يومين من الموكب، بدأ في العمل تحت «الشريشة»

في منتصف بيتنا، ولم يكن انهماكه هذه المرة على واحدة من مشغولات البحر كما هي العادة.. جاء أولاً بألواح وبدأ في نجارة ما يمكن أن يشبه الباب:

– ما الذي تفعله يا أبي؟

لا يجيب. متكتم على الأمر. يحاول ارتكاب أمر ما. لا يحاول. إنه «يصنع» ثلاجة فعلاً.

أقف أمامه تحت ظل «الشريشة» ويدي حول خصري وأقول:

– ولكن أين الماكينة يا أبي؟ الثلاجة تعمل بالماكينة، هكذا سمعت، فأين الماكينة؟

يلفحني بـ«سطارٍ»[1] قاس على وجهي، ويقول بغضب:

– اذهب إنك صغير ولا تفهم شيئاً.

نسي أبي الماكينة؟ لم يكن يعرف ما هي الماكينة. ولهذا بقي «صندوق» أبي (الذي كان ينوي دهنه بـ«النورة» حتى يغدو أبيض) واقفاً تحت «الشريشة» حتى أخفاه.

لم أجرؤ بعد ذلك على الحديث مع أبي حول هذا الأمر وكتمته لسنوات، لم أخبر به أحداً، حتى الآن.

---

(1) «سطار»: جانب الوجه، والسطار كذلك الضرب والكفخ على هذا الجانب.

–6–

الحدث الثاني من النوع الذي بالإمكان أن يُقال عنه بأنه من الأحداث العظيمة، وذات الشأن الكبير. فنحن الذين كنا بالكاد قد تعرفنا على السيارة نرصد بين الحين والآخر الطائرة في الأعالي من السماء، أما أن يأتي «كائن» حديدي يدعى «الهليكوبتر» وينزل. أين؟ في «الغليلة»: غليلتنا. وبالذات في «الصِّنية»: صنيتنا. فذلك على وجه التحديد هو العظمة وهي تتحقق فعلياً.

بدأ الأمر بخبر عن زيارة ضيف كبير إلى حيّنا. وعند الظهيرة ظهر من البعيد ما يشبه الذبابة الكبيرة وما أن رآها أحد الصغار حتى نادى على البقية فجاء الرجال الخارجون تواً من البحر ومن المزارع ومن أعطاف الجبال وأسرة القيلولة. وخرجت النسوة وأياديهن مازالت تحمل «الملاليس»[1] وعلى اكتافهن ريش الدجاج وزعانف السمك.

احتشد الجمع في «الغليلة» وهو يرصد تلك الذبابة تكبر وتقترب حتى اعتلت الرؤوس، كانت الأنظار شاخصة إلى تلك الدابة الحديدية وهي تقترب في كل لحظة من الأرض هازة مؤخرتها وكأنها تعرف بأن هذه «الغليلة» ومنذ الأبد للبراز، بينما مروحتها التي تشبه مروحة السعف «الآلية»، وكلما اقتربت من الأرض أيقظت تلك الشعوب الغفيرة من الجن والمستقرة في ذلك المكان.

---

(1) جمع «ملاّس»: مغرفة كبيرة مفلطحة.

ظهر بأن الحاكم وحاشيته وحرسه كانوا في «الخور» ذلك النهار. وبالرغم من تأكد الجميع بأنه لم ير، لا هو ولا أسلافه، باباً في الذبابة إلا أن في هذه الذبابة الحديدية باب نزل منه رجل متأنق جداً، قيل لنا بعد ذلك بأنه جيسكار دي ديستان، رئيس جمهورية فرنسا:

– فرنسا!.. أين فرنسا؟

– بعد كلبا.. أم بين الشارقة ودبي؟

– لا أحد يعرف.

– رئيسها ماذا يعني رئيسها، الشيخ أم «النوخذا»؟

– ومن أين لي أن أعرف.

لكن «الذبابة الآلية» التي لها باب لم تعر هذا الحوار أي اهتمام يذكر وعادت إلى الطيران من جديد واختفت في السماء تاركة ذلك الرجل الأنيق في صحبة مستقبليه من الشيوخ وأعوانهم واتباع أعوانهم، وصحابة التابعين.

المطوع[1] «الباطني» في الجمعة التي تلت هذا الحدث قال في خطبته بأنه وبناء على الأحاديث المروية فإن المعدن عندما يتكلم كما سمع هو بنفسه المذياع عند بعض الأعيان، أو أن يطير المعدن كما هو الأمر مع ذبابة «الفرنسي» التي «حدثت» في «غليلتنا»، فإن هذه الأمور وغيرها مما نشهده هذه الأيام لا تدل إن دلت إلا على اقتراب

---

(1) «المطوع»: المتدين وتشمل المفردة قديماً القضاة التقليدين وأئمة المساجد والمؤذنين ومعلمي الأطفال في الكتاتيب والمطلعين القلة على الكتب.

القيامة. إنها، وبلا شك، من علامات الساعة.

—7—

في أغلب السنوات كُنا نقيِّظ مع جيراننا في المديفي حيث كانت تُبنى «غرف» جريد النخل خلف البيوت مباشرة من جهة الغرب، ورغم الأمتار القليلة التي يبتعد فيها ذلك المقيظ عن بيوتنا، فإن ممارسات المقيظين تدل على أنهم ارتحلوا إلى مكان قصي.

كانوا أكثر تحرراً من عاداتهم اليومية، ولا يزورون بيوتهم إلا عند الحاجة القصوى. يطبخون ويعدون كل ما يحتاجون إليه معاً. وكانوا أفذاذاً في تحريك أياديهم، فالأيادي التي لا تتحرك تقتل.

بدءاً ينظفون عمتهم النخلة، وعندما يحصلون على «كربها»[1] وجريدها وخوصها، يجتمع الرجال كي ينسجوا من الجريد «صفحات غرف»، إذ ليس بإمكانك أن تسميها جدراناً، فتكون «الدعون». وبالمهارة نفسها تنسج النساء ما يُفرش للنوم أو للأكل، أو كـ«أوان»[2]. أما «الكرب» فيطفو. ولذلك فهو للبحر. يوضعُ كعلامات للشباك.

ثم جاء خطيب مسجد وإمام نصف مبصر من الباطنة. كان جسده

(1) «الكرب»: الجزء المتبقي من سعف النخل.

(2) كانت تصنع قفف صغيرة ملونة وبأشكال مختلفة لتبادل «تباشير» الرطب بين الأحياء والقرى المتباعدة. ومن أشهر هذه القفف «الضميدة» والتي يتغنى فيها أطفال زمانئذ في أناشيدهم.

نحيلاً وقسماته تدل على ذكاء يوحي بمعرفة سرية. وسرعان ما تفتقت هذه المعرفة عن حياكته جسد سفينة من جريد النخل ملأ بطنها بـ«الكرب»، وانطلق بمخلوقته: «الشاشة»[1]، يصطاد بين الصلوات.

وكما يُشغلون الأهالي أياديهم يُسنون ألسنتهم أيضاً.

إنهم يتحدثون عن كل شيء من الجنس حتى القيامة. إن واحدهم هو الجميع وجميعهم واحد. وأكاد أجزم أنه لا توجد أنا في القرية. فالأنا هي الشيطان الذي يُعاذ منه بمناسبة وبلا مناسبة.

إن عليك أن تقول وتفعل ما يقوله ويفعله الجميع في القرية، والمهارة أن تقول وتفعل ذلك بشكل يفوق الآخرين.

الشاذون من الرجال أو النساء، من الأسوياء أو المجانين، من العاديين أو السحرة، مستوعبون كلياً في ذلك المجتمع، وما الغريب إلا ذلك الذي لا يعرف كيف يقول ما تقول، وكيف يفعل ما تفعل.

وكالأنا لا يوجد في القرية غريب إلا الشيطان. إن النظرة إلى أهالي القرى كسكن جنة مفقودة نظرة حمقى. فهم مكرة لا يطيقهم فيلسوف ويهرب من وجوههم البحر وتشرد عنهم جذور النخل والأشجار إلى الأقاصي من أعماق الأرض.

---

(1) «الشاشة»: قارب ملموم من جريد النخل. وعلى ما يبدو فإن أغلب أدوات الصيد (كالألياخ والقراقير وغيرها) في الماضي كانت تحاك من أجزاء النخلة كالسعف والعراجين والكرب والجذوع. كما ان «الشاشة» على الأرجح من أقدم السفن في هذه المنطقة.

-8-

إذا ما كان بإمكاني الآن العودة إلى المقيظ غرب المديفي، فإنه باختصار طقس صرف. ففي تلك الأيام كان الصيف مناسبة لعودة المغتربين. إذ استيقظت من قماطي على غياب العديدين من سكان الخور في الخارج، بمن فيهم أبي.

وبينما تكون الأيادي منهمكة في حرية المقيظ يصل أحدهم، من الكويت على الأغلب، ممتلئة حقائبه بالرسائل والهدايا. الرسائل للأمهات وكبار السن يذهبون بها إلى من يفك الخط كي تستغرق قراءة أية رسالة ليلة بأكملها، وبحضور جميع من في المقيظ، أما الهدايا فأفضلها بالطبع تلك التي تخصنا نحن الصغار..

وفيما عدا تصرفات الطبيعة والقوى الكامنة في الهواء، فإن الجديد من الأحداث في القرية يحدث عبر أولئك المغتربين. إنهم إما يأتون بالنقود فتظهر بيوتاً تُبنى من الإسمنت والطابوق بدلاً من الطين، أو يرسلون الرسائل، بما فيها تلك الملغمة بالهدايا، أو لا يأتون.

تمرست طفولتي على كل هذه الحالات: فأبي عندما عمل «سكونياً» على إحدى السفن المملوكة لذلك «النوخذا» من خورفكان، كان خطهم الرئيسي ينطلق من ميناء الأحمدي في الكويت، لذلك كان كثيراً ما يرسل النقود والهدايا مع العائدين. النقود تختفي في مخبأ أمي ليظهر بعد ذلك في البيت جدار من إسمنت. أما عن الهدايا، فالبرغم من أنها كانت قليلة، إلا أنها أحياناً تكون محملة بالمفاجأة الصاعقة.

أي من ذلك النوع من الصواعق التي تُرقص القلب.

أو كما حدث في ذلك اليوم..

قالت لي أمي وقد لبست عباءتها وتأهبت للخروج:

- تعال معي. فلان الفلاني وصل البارحة وأنا ذاهبة للسلام عليه..

السلام عليه يعني أن في الأمر «إنّه»[1] أو رسالة، والرسالة تعني... فقفزت راكضاً خلفها حتى وصلنا إلى «العريش» الذي يجلس فيه ذلك العائد. دخلنا وسلّمنا..

العائد متربعاً في صدر «العريش» وحوله جمع لا بأس به من الناس منهمكين في سماع حكاياته. كان يروي مغامرات رحلة عودته، وحكاياته عن الأشياء الجديدة التي رآها هناك في الكويت، في الكويت الجديدة.

واجماً جلست بجوار أمي، غير مثار من تلك الحكايات التي يرويها ذلك العائد والتي كثيراً ما كانت مثيلاتها يثرنني، منتظراً أن يلتفت لنا أنا وأمي، أن يلقي علينا نظرة، مجرد نظرة، أن يخبرنا عن رسالة، عن شيء. لكن الاستاذ كان مندمجاً جداً في روي حكاياته وأظنني صبرت دهراً حتى جاء دور أمي كي يقول لها:

- راشد بخير، وهم مسافرون إلى البصرة كي يُحمِّلوا تمراً ومن ثم سيمرون على خورفكان.. ويسلّم عليكِ وعلى الولد.

(1) «الإنّة» في اللهجة: الأمر الخفي، حين يقال: في الأمر إنّه...

– و«بس»...

قلت في نفسي.

و«على الولد»، من هو «الولد»؟ على ما يبدو فإنَّ ذلك الأب نَسِيَ اسمي حتى. حقاً لقد تركني قبل كذا من الشهور وكنت ولدا، لكني في غيابه الطويل هذا، صرتُ شيئاً آخر. صرت رجلاً. ثم غير هذا، فإن ذلك الأب والزوج الغائب كل هذه الشهور لم يتعب نفسه إلا بقوله لهذا العائد...

–«سلِّم عليها وعلى...»

وأين الرسالة؟

ارتفع منسوب اليأس في حلقي، حتى كدت أتقيَّؤه. بعد مُدّة قالت أمي:

–قم.

حاولت القيام متعكزّاً على يأسي، فالتفت العائد نحوها وقال:

– لكم بقشة يا أم أحمد... يا أم فلان أعطيها بقشتها...

كانت أم فلان متربعة في ذلك المجلس، وغارقة في يم الحلم الذي تبعثه حكايات العائد، بينما ترتشف فنجان قهوتها المرّة وهي ترفع من على وجهها المغبّر «برقعها المهترئ».

متى ستنتهي هذه من فنجانها؟ متى سترجع «برقعها» ليلتصق بذلك الوجه المجعَّد؟، ومتى ستقوم لتدلنا على تلك «البقشة»؟ انتظاري لا يتحمل هذا. ليس بإمكاني تحمل كل هذا الانتظار.

أخيراً انتبهت أم فلان. أخيراً انتهت من الفنجان وأرجعت «البرقع» إلى لحده في الوجه، أخيراً قامت.

قامت ودلتنا أنا وأمي على بقشة تكاد أن تكون بطولي حينئذ.

قالت أمي:

– هذه؟

كأنها كانت تتوقع شيئاً آخر، أما أنا فوقفت خلفها، خلف أمي، ممسكاً بطرف «غدفتها»[1] وقد ابتلع احشائي الفضول.

أم فلان رفعت غطاء البقشة فصعقت. انها لي. انها هدية من أبي لي. انها دراجة هوائية صغيرة.

درّاجة أنطلقت بها من البقشة مباشرة، تنقلب علي وانقلب عليها في دروب الحي المتربة. درّاجة هدية من أبي الغائب الذي تذكرني والتي جعلتني مميزاً لأول مرّة في حياتي. مميزاً عني، وعن أطفال الحي، أطفال الغبار، أقراني، مرتفعاً عنهم بدراجة.

درّاجة جعلت من لم يكن يتودد لي يتودد. وتركب البنات أمامي فتشتعل انعطافات «السكيك» في عيني، ويركبن خلفي ويحضنني، أحضان كنت أبحث عنها، يحضنني خشية من السقوط، أما أنا فأنطلق. إذ ما أجمل السقوط، ما أروعه، بين أحضان البنات.

---

(1) «الغدفة» و«الشمد»، وتسمى في مناطق أخرى من الإمارات بـ«الوقاية»، هو غطاء رأس خفيف كانت تلبسه المرأة دائماً في البيت وعندما تعمل في الحقل أو تجمع الحطب أو تجلب الماء، ويكون عادة أبيضاً تتخلله نقوش خضراء أو زرقاء، بينما العباءة السوداء كانت تترك في تلك الأيام للمناسبات.

بعد شهور. وربما بعد أن عادت السفينة التي يعمل عليها أبي من البصرة ومرت على ميناء الأحمدي في الكويت من جديد حدث حريق فيها فأصيب بعض البحارة ومنهم أبي.

من الحريق أُدخل أبي إلى المستشفى فانقطعت الرسائل. هنا أبدت أمي شجاعة لا نظير لها. فمرض أبي يعني انقطاع المال الذي يقوم عليه معيشنا. ولحسن الحظ لم يكن للمال أهمية كالتي له الآن، إذ في ذلك الماضي بإمكانك العيش وجيبك لا ينطوي حتى على «آنه»[1].

في القيظ التالي تحسنت صحة أبي وأوشك على العودة، إلا أن الرجل الذي أوصل لأمي ولي البقشة قبل سنة أو أكثر بقليل مات في حادثة غريبة وعجيبة. كان هو وبعض الأطفال من أقربائه يمشون على شاطئ الكويت. شيء ما لفت انتباه أحد الأطفال فرماه على الآخر، الآخر رد بالمثل، فانقلبت الحياة إلى موت، وامتلأ ذلك الشاطئ بالدماء والأشلاء الممزقة.

إن ما ظنه الأطفال كرة، كان قنبلة. ولم ينج من ذلك الحادث الذي عَصَر قلب الحي إلا طفلان معاقان.

وعندما يضرب القدر ضربة دامية بهذا المستوى تتفتق أشد العقول

---

(1) «آنه»: جزء من الروبية الهندية، وكانت أقل من الفلس بالنسبة للدرهم المصكوك في هذا العصر.

ضيقاً وأكثر النفوس كتماناً عن مخيلة خصبة.

فحكاية القنبلة تلوكها الألسن في كل المقيظ، ولعلَّ استطراداً كهذا يخفف، مع مضي الوقت، من بشاعة الحياة. كما أن مثل هكذا استطراد يغسل الموتى من عيوبهم ونواقصهم، ويحولهم إلى شهداء فعليين. هذا إن كانوا كباراً، أما الأطفال فيحولهم فوراً إلى طيور تستقبل أمهاتهم وآباءهم لاحقاً، بفرح مدهش، عند باب الجنة.

أعرف هذه «الميثولوجيا» عن قرب. فلقد مات لي أخوان أحدهما قبلي، والآخر بعدي..

وكلاهما مدفونان في مقبرة صغيرة غرب المقيظ من الطرف الجنوبي.

وأظن أن أبويّ حمّلانني موتهما. كما أنني عانيت من العيش يتيماً بلا أخ، وبالذات بلا أخت.

«أخي الثاني» (هل من الممكن أن نسميه كذلك؟) شهدت كل تفاصيل موته. ومراراً حاولت تذكر تلك التفاصيل دون جدوى، فالثقوب السوداء في حيواتنا لديها مقدرة فذة على التلاعب بالذاكرة، فنحن البشر مهددون دوماً بفحيحها الصادر من أعماقنا، متمنعة عن أي محاولة عبثية لإخراجها من ذلك القعر العميق.

أتذكر فحسب أنه كان مريضاً جداً، وأن أمي لم تستطع يومها فعل شيء حيال مرضه. وعندما أحسَّت بدنو أجله في غرفتنا مبيتنا الطينية الوحيدة حينئذ، صرخت بي لكي أحضر إحدى الجارات.

ومازلت أذكر قفزتي من على ركام جدار بيتنا الطيني المتهدم بفعل المطر الأخير، وسلوكي السكة حيث الجارة، وانتظاري للجارة حتى تلبس عباءتها، ومرافقتي لتلك الجارة حتى البيت... تنقطع ذاكرتي هنا فلا أتذكر إلا ذلك النحيب العاتي الذي كانت تطلقه أمي، وبوضوح أكثر أتذكر رجالاً في دائرة شبه مغلقة يغسلونه. وأمي تندب بين مجموعة من النساء زاحفة نحو تلك الدائرة والأخريات يُمسكن بها..

ثم بعد ذلك يحمل أولئك الرجال لفافة بيضاء ممددة على أياديهم ويرحلون.

–10–

كان هناك تكتم ما تجاه الموت، وفي مرات عديدة كان أبي يعود منهكاً في الصباح الباكر أو قبل غروب الشمس، وثيابه قد ملأت ثقوبها الصغيرة حبات التراب لأعرف لاحقاً أنه عائد من دفن ميت.

ولا يقول شيئاً لا عن الميت، ولا عن الدفن. بعد ذلك يعود ذلك الميت في «السوالف» أو الحكايات فيقال:

– ... «حياة فلان».

ويروون عنه ما يجعله حياً فيما بينهم. رغم أنني تساءلت كثيراً في صباي عن السبب في وصفهم «فلان» هذا بـ«الحياة» بالرغم من

أنه ميت.

بالتأكيد لم يكن الموت نهائياً في نظر أولئك الأهالي. فإضافة إلى الآخرة، هنالك السحرة الذين يجوبون الهواء. لكن الأمر الذي لابد من الإشارة إليه هنا هو مهادنة الموت. وتجد ذلك في المقابر المنتشرة بين الأحياء والمزارع.

إنك في ذلك الصبا تمر بالقبور كما تمر بإشارات المرور في وقتنا الحاضر.

إن القبور لا تُزار ولا تكرّم كما يحدث في الكثير من المجتمعات العربية والإسلامية المجاورة.

إنها مجرد انتفاخ في الأرض تحده طولياً حجرتان ناشزتان، وسرعان ما يهدأ ذلك المغص الذي تعانيه الأرض، ويختفي الألم.

أظن أنه كان يُقال لنا كلما مررنا بمقبرة أن نُسلِّم. إلا أن هذا كان يثير استغرابي، خاصة حين كنت أمر على المقبرة المدفون فيها أَخَوَيّ، إن الأغنام هناك تترك العشب، وتُنصت لما يقوله الموتى. ولمرات عدة حاولت أن أرصد ذلك. وكنت أرى الأغنام فعلاً ساهمة مفكرة من دون أن أحسم هل هي في تلك اللحظة تسمعُ ثرثرة أخوي في القبر، أم تفكر في معطيات شديدة الدقة جعلتها ترعى في أرض قاحلة باستمرار كهذه.

ومما يدل على مهادنة الموت أن مقبرة أخوي تلك كانت بالقرب من المقيظ.

وفيما عدا حادثة القنبلة، فإن العائدين من الخارج يأتون على الدوام بأشياء غريبة وعجيبة على الحي. حتى أنهم لما يعودون، يعودون مختلفين عن البقية: في اللهجة وفيما يلبسون ويأكلون. وبينما فتيانهم يمارسون علينا نحن الصبيان الراسخين في الغبار صنوف التبجح، نتمتع باللعب مع صباياهم اللواتي تعلمن في المدارس هناك «كل شيء»، أو كما يحبذون القول أمام جموع نظراتنا المصدقة والطافحة بخجل كاذب يلقيهن أرضاً من الضحك بينما يعيدنا، نحن، إلى جحورنا في انتظار فرصة أخرى لا تأتي غالباً.

–11–

العائدون من الخارج أو من أسفار البحر أو الحج يستقبلون برفع الرايات («البنادير»[1]) على أسطح البيوت، وكانت تلك الرايات عبارة عن «خلقان» من كل نوع، وتوضع كيفما اتفق.

أكانوا يرفعون رايات سود عند الموت؟

لا أتذكر. ولكن تلك «الخلقان»[2] المبتهجة، والتي تكتب عليها الريح حروف كلمات الاستقبال تملأ الأسقف، وتكنس شيئاً من الرتابة التي كانت تعيشها تلك الأحياء.

ولم يكن الذاهبون إلى الحج من حيث القيمة كبقية المسافرين.

---

(1) «البنادير»: جمع «بنديرة»: الراية، والمفردة غير عربية.

(2) «الخلقان»: الأثواب البالية، و«الخلق»: سروال المرأة بالتحديد.

وإن كان الذاهبون إلى العمل في الخارج قد أحرزوا انتصاراً دامغاً في العقود الأخيرة.

فالحج كان فعلاً حجاً. كما أنها لم تكن رحلة العمر ولمن استطاع سبيلا فحسب، وإنما أيضاً تذوق المغامرة بكل ما تعني من تهديد للحياة من أجل وجهه تعالى.

الحاج يوّدع الجميع ويترك كل شيء خلفه، ويخرج من الحي كأنه خارجاً حتى لا يعود..

إن الحج في تلك الأزمان أقرب ما يكون إلى البطولة الروحية. ويبقى لدى العائد من الحج مخزون حكائي عجيب يكفيه لبقية حياته.

وعندما دخلت الباصات بعد ذلك إلى بعض مراحل رحلة الحج (إضافة إلى السفن والإبل) لم تقلل من الحوادث المؤذية. ومن حوادث تلك الطفولة موت خالتي مريم في إحدى رحلات الحج.

لسبب ما كانت مريم خالتي على خلاف مع أمي (أمي التي هي كمية من الخلافات). وعندما كنا نزور خالتي الأخرى في حي بالقرب من نخل جدي، كانت تقف في الدرب بانتظار خروجي للعب بالسكة لتأخذني بالأحضان. حنان يبدو غريباً مقارنة بأمي الجافة، وعلى تلك النفوس الشقية حتى في الكلام. مالئة جيوبي بكل ما يمكنها مما لذ وطاب. والقبل تلك التي تملأ خدودي الضامرة.

-12-

تمكن موت خالتي من تأسيس عش للفقدان في داخلي وألمس أجنحته كل مرة في تلك الشحنة العاطفية التي تعبرني كرعد كلما سمعت اسم: مريم.

هذا الموت يقارب في داخلي موت طفلة من جيراننا اسمها: أمل. وكنا غالباً ما نلهو معاً تحت «شريشة» بيتنا بما يوفره لنا الظل من أعضاء مفتوحة وعيون غائرة.

حرق موت أمل حشائش جوفي. وقادني إلى ملاحظة الناس في تلك الأيام وكيف يموتون إما لأسباب وجيهة جداً كالشيخوخة المتأخرة للغاية أو مرض فاتك أو حادث مهلك. وإما لأسباب في غاية التفاهة كأن يرفس حياتهم حمار، أو كتلك الفتاة التي ماتت لأن زنبوراً عضها في النهد، أو كأمل التي قيل إن سبب موتها جرح في الإصبع.

على الأغلب دُفنت أمل، مع أخوي في تلك المقبرة قرب المقيظ، وإذا ما كانت «الضبّاحة» (لا أدري إلى الآن ما «الضبّاحة» بالتحديد. هل هي أنثى الثعلب أم قط بري أم الوشق أم حيوان آخر؟) تتجول في الحي، في دروب الحي، قادمة من برية الظلام المرعبة، ومطلقة أصواتها المريعة، فيفسِّر السكان ذلك بموت وشيك لأحد من يعرفون، فإن إطلاق الثعلب لغنائه في الليل، يدل على العكس من ذلك، يدلُّ على الحياةِ، يدل على تباشير النخل، ونضوج البسر، وتحوله إلى رطب.

حينها كانت تُعد قففاً، صغيرة ملونة ومختلفة الأشكال توضع فيها الأنواع المبكرة في النضج، ويتم تبادلها كهدايا من بيت إلى بيت، ومن حي إلى حي ومن قرية إلى أخرى[1].

كما كان بالقرب من مقيظ المديفي بستان صغير مازلت أتذكر أمي وهي تؤجر منه بداية كل قيظ نخلة. قبل الغروب نمر على تلك النخلة كي نطمئن على أحوالها، عائدين منها بقفير من ذهب الرطب، وغالباً ما كانت ترافقنا في رحلة العودة جيوش من مختلف قبائل الزنابير.

وعلى الأرجح فإن ذلك البستان كان بجوار البئر التي يرتوي منها الحي كله، وتشرب الأنعام. لكن لاحقاً وعندما جرت النقود في يد الناس، حفر كل منهم بئراً في بيته، ورغم قرب الحي من البحر، كانت مياه تلك الآبار تكاد أن تكون عذبة.

كان حفر بئر في بيتٍ حفلة وطقساً.

إن أغلب أعمال تلك الفترة، ومشاغل الحياة كانت أعمالاً ومشاغل جماعية، وهي في جانبها الآخر كانت طقوساً واحتفالات. وبقدر ما ينطبق هذا على الأعراس والولادات والختان وغيرها، فإنه أيضاً يشمل الأعمال الجماعية العادية: أنماط صيد السمك، أو نسج الخوص والجريد، أو حفر بئر.

تختلط هنا الجهود اليدوية الفائقة مع الضحكات والأهازيج.

---

(1) عن هذه القفف يمكن العودة لقراءة هامش –1–، ص 42 من هذا الكتاب.

ويبدو النظر إلى فنون كـ«العيالة» أو «المالد» أو «الويلية»[1] من خارج هذا السياق، وبشكل مستقل، كمن يفضل اختصار السحلية إلى ذيلها المقصوص.

-13-

على ذكر الاحتفالات فإن الأرض التي كانت مقيظاً في المديفي تتحول إلى مصلى للعيدين، وبعد أن تُفرش الحصر ويصل الناس يقف الإمام ببساطة على حصيرة ويخطب، متكئاً على عصا وبيده كتاب، وهذان شرطان لا يتنازل عنهما أبداً أولئك القرويون في تلك الجهات. ولطالما سمعت عن أئمة طردوا من المساجد إما لأنهم ارتجلوا خطبهم أو حتى لم يتكئوا على عصا.

كان العيد ولادة جديدة للوجود والناس، وأوضح مظهر لهذه الولادة تخطي العداوات التي تسبق العيد، والثياب التي لا تُلبس إلا في ذلك الصباح «السعيد».

إن العوز لا يمكّن الأهالي من شراء ثياب جديدة لهم ولعيالهم، لكن بإمكانهم وبطيب خاطر بيع تيس مرغوب أو عنزة ولود لشراء ثياب جديدة للعيد. كذلك فإن العمل لا يمكنهم من التأنق، لهذا

(1) «العيالة والويلية»: من الأداءات الحركية (الرقصات الشعبية) المعروفة. و«المالد» فن يقدم في المناسبات الدينية والاجتماعية، كما في الاحتفاء بمولد النبي، ومن المرجح أن الذين أدخلوا وأسسوا هذا الفن في هذه المنطقة، كانوا من ذوي الميول الصوفية.

فإنك في المصلى فقط تجد الرجال يلبسون «كندورة» ويعتمرون «غترة» وعقالاً وينتعلون حذاءً. فما يُسمى في الخليج اليوم بـ«اللباس الوطني» هو من مظاهر الاستهلاك الذي استبد بالمنطقة في الآونة الأخيرة، فالإنسان العامل والمنتج، إنسان ما قبل النفط، لم تكن حياته لتسمح له أن «يحبس» جسده في كفن أبيض مكوي كالذي نلبسه اليوم.

ولقد بقيت من أعياد ذلك الصبا ذكريات عديدة لعل من أبرزها حالتين:

الأولى حين سألت أبي عن السبب في تغييره الطريق في ذهابنا ومجيئنا من مصلى العيد، فقال لي إن الملائكة تقف على الطرقات تسلّم على الذاهبين والعائدين، وبتغيير الطريق نسلِّم بالتالي على قدر أكبر من الملائكة.

في أحد الأعياد تركت أبي يعانق رجال الحي في المصلى وعدت مسرعاً إلى البيت علَّ أحد الملائكة يجدني وحدي عائداً فيظهر لي من خلف الهواء..

تلكأت في كل الدورب التي تقود إلى البيت ورفعت صوتي بالسلام من دون أن تعيرني الملائكة أي اهتمام.

الحالة الثانية: «عزيمة السياسي».. وهو عنوان غريب لأحداث عجيبة في حي المديفي البسيط المُلقى على بحر خورفكان. لا أعرف من هو هذا «السياسي» على وجه التحديد؟. هل هو وكيل المنتدب

البريطاني، أم أحد مساعديه الكبار؟ أم «المنتدب» نفسه. الذي شاهدته رجلاً أحمر، يُقال إنه إنجليزي، يسكن ومعه حرس في بيت كبير يقع خلف المسجد مباشرة وبعد صلاة كل عيد يدعو أهالي الحي إلى مجلسه العامر بما لم تره عين أبداً من المأكولات والمشروبات، مبدياً ترحيبه بالراعي كما بالصياد، زارعاً الوجوم في تلك الصبيحة البهيجة بلغته العربية الفصحى التي لا يُجاريه فيها غير المطوع.

بيت «السياسي» يجاور كذلك بيتاً مميزاً بغرفه وجدرانه وساحته المشجرة، وكان مهجوراً على ما يبدو من مدّة طويلة ولذلك ربما قيل بانَّ الجن يسكن هذا البيت الآن. ورغم ان الجن لا يظهر لبني البشر إلا كمفاجآت إلا أننا نحن الصغار وسواء كان ذلك في الحلم أو في الواقع، وضعنا الخطط العديدة لاقتحام ذلك البيت والولوج إلى غُرَفه وفتح أبوابها أمام الفضول، وبالفعل نجحنا غير مرّة في ذلك، خاصة في النهار، حيث نتحلى بشجاعة يبددها الليل، فلم نر في تلك الغرف إلا الخفافيش والبوم. نظرات البوم التي لم تفارق أعمارنا بعد ذلك ولا أندفاع الخفافيش طائرة في ليل الحياة المستمر.

الأمر الملفت هنا أن «بيت السياسي» يجاور «بيت السحرة». وبإمكانك أن تقتحم «بيت السحرة» المليء بالأسرار والغموض وتدخل في غرفه المظلمة إذا كنت تجرؤ، أما «بيت السياسي» فإنه مغلق تماماً حتى، على ما يبدو، أمام جيرانه «السحرة».

—14—

من جهة الغرب، أي الجبل، كانت تنتهي «الغليلة» بعيادة لطالما حُملت إليها وأنا رضيع من كمية الأمراض التي عادة ما تكتنف القادم الجديد النحس إلى العالم، في مثل هذه المنطقة وفي مثل ذلك الوقت. ولدي صورة نادرة لأمي منشورة في مجلة «العربي»، تظهر فيها بـ«غدفتها» أو «شمدها» و«كندورتها» الخضراء المبقعة و«برقعها»، وهي تتحدث مع إحدى الممرضات أمام المستوصف الذي افتتح حديثاً في خورفكان. إنها تتحدث مع الممرضة عني بالتأكيد، فلقد قيل لي الكثير عن الأمراض التي ألمت بي منذ ولادتي وحتى كبرت، وقيل لي بأنها أمراض قد تقتل أي طفل في سني ولكنها لم تقتلني. إنهم يستغربون من نجاتي.

والمستوصف الذي كان عبارة عن ثلاثة أو أربعة بيوت بيضاء و«مستطيلة» تحولت بعد ذلك إلى سكن للمدرسين. وبعده بمسافة، أي بين هذا المستوصف والجبل، اختارت عائلة رجل يدعى بعبد الرزاق أن تبني بيتها، وكان مبنياً من الإسمنت. وهذا ما يجعله مميزاً جداً في ذلك الوقت، وظاهراً في خلاء «السيح» ذاك للعيان.

في تلك الأسرة كان هنالك شبان ولديهم أصدقاء كثر، وغالباً ما كانوا يجتمعون في العصريات كي يلعبوا الكرة، عرفنا لاحقاً بأنها تُسمى بـ«كرة القدم»، في ملعب ترابي خططوه بأنفسهم. بل أن «مستواهم الكروي» وصل إلى درجة اللعب مع أفراد البحرية

البريطانية الذين كانوا يزورون المنطقة كل مرة للاطمئنان على «الأوضاع»!

كنا نجلس نحن صغار الحي واجمين على أحد جانبي الملعب، ننظر إلى هؤلاء الكبار الذي يتقاذفون الكرة و«يتفننون» في تمريرها، ويتصارعون كي يخلصونها من الخصم ومن ثم يسرعون كي يقذفونها بقوة، وأحياناً بإمعان بين عارضتين.

القوة والقذف والعارضتين، مفردات كانت في طريقها للنهوض والتفتح في عالمنا نحن أيضاً، فبلوغنا على وشك، ورغبتنا في الحياة والعالم لا تُحد.

ولا أدري من أي وسادة مثقوبة صنع أحدنا الكرة الأولى التي لعبنا بها. جاءت بعد ذلك «كور فعلية» مع العائدين من الكويت. كنا نلعب في «البراحة» التي خلف المسجد أو أمامه.

أذكر أن الملعب أمام المسجد كان أكثر تطوراً. وضعنا حجرتين على الجانبين وعملنا من الحي – بعد أن كبرنا قليلاً – فريقين متنافسين وسرعان ما بدأنا بالتجرؤ وخوض غمار الذهاب إلى الأحياء البعيدة في خورفكان (التي لا تتجاوز مساحتها عدة كيلومترات قليلة) كي ننافس الفرق الأخرى المهمة في تلك الأحياء.

وكان من أدواري، غير كوني لاعب فاشل، كتابة جمل وأبيات تؤيد وتعمل ديموغوجياً، أو ماذا يُسمون الإعلام هذه الأيام؟ تعمل «ميديا» أو دعاية لصالح فريقي ضد الفريق الآخر، وكنت أكتب

ذلك على برميل لا أتذكر الآن من أين جلبناه ولا الدّاعي لذلك. لكن ما كنت أخطه بالطباشير المسروقة من المدرسة كان يستفز الفريق الآخر. وتحدث في ذلك الملعب قرب صلاة المغرب معارك من النوع التي تتغير فيها الوظائف المعتادة للسيقان والرؤوس.

-15-

غير العيادة التي تحولت إلى سكن للمدرسين، كان هنالك بيوت أخرى مخصصة لهم، ويجاور هذه البيوت البيضاء مبنى مع ملحقاته يُسمى «المضيف»[1] كان ينزل فيه الحاكم حين يزور «تابعة» إمارته: خورفكان.

وأمام ذلك «المضيف» تتعالى ما يقرب من ثلاث «غافات»[2] مسنّة وظليلة يجتمع تحتها الأهالي من كل خورفكان والقرى المجاورة حين يسمعون بقدوم الشيخ. يُقيم بعضهم تحت «الغاف»، أو يذهبون ويعودون منذ الفجر على أمل الدخول على الحاكم لطلب المال أو لحل مشكلة. وكنا كصغار نخاتل الجميع ونكذب حتى نفوز بمرأى الشيخ، وبالرغم من أن بعضنا قد نجح فعلاً في تلك المغامرة وعاد إلى أهله بأوراق نقدية لم يسبق أن رأوها، رغم ذلك فإن أكثر ما كان يبهجنا هو ذلك الحشد الهادر والمُجْتمع لأيام أمام ذلك «المضيف».

(1) «المضيف» وينطق «مضوف» أيضاً: بيت كان يخصصه الحاكم لسكن مضيفيه.

(2) «الغاف» شجرة ظليلة لها مكانة خاصة، والمفردة عربية، وكان يُطلق على هذه المنطقة قديماً تسمية: «بلاد الغاف».

وحتى حين ينفض الجمع كنا نشاهد تحت «الغافات الثلاث» ما لا ينسى. فإلى جوار «المضيف» كان يسكن ضابط شرطة جاء من الشارقة واستقر في المديفي كقائد لشرطة خورفكان المستحدثة يومها. وفي أحد الأيام اقتربت سيارة من «الغاف» وتوقفت تحت ظلالها الوارفة وهي تحمل رجالاً ونساء يبكون بينما تمدد بينهم في الوسط من ذلك «البيكب» المكشوف جسد امرأة اقتلع قلبها واندلقت أحشاؤه.

رأيت أحدهم في تلك اللحظة الرهيبة وهو «يتحمل» بعض حبال وقطع ذلك القلب على يديه، ورأيت ذلك الجرح المرعب فامتلأت عين طفولتي بالدماء. وعلى الأرجح فإن أولئك الناس كانوا بتلك الطريقة يقدمون إلى الضابط الدليل الأكيد على جريمة ارتكبها أحدهم، أما الحكايات التي دارت في الحي بعد ذلك فكانت تقول شيئاً آخر. فالمرأة القتيلة من قرية محاذية جداً لخورفكان ويعرف جميع من فيها بأنها ومنذ شهور تزوجت «ساحراً» معروفاً، وأن هذا «الساحر» لم يتزوجها إلا لكي يقتطع «نخاع» قلبها ويقدمه كتقدمة، كهدية لمعارفه من الجن المعتادين كما يبدو على مثل هذا النوع من الهدايا.

أما الضابط والذي كان من عائلة «المدفع»، وقد عمّت «سمعته» البلدة بعد ذلك (ظل لسنوات يعمل قائداً للشرطة في خورفكان، وكان ممن خلفه رجل سيضحى لاحقاً هو وعائلته من «أخلص» أهلي، إنه حميد معتوق وزوجته هالة اللذين بالرغم من إقامتهم الطويلة في خورفكان لم ألتقهم هناك، وإنما تعرفت عليهم بعد ذلك حين

عملت في الشارقة)، وكانت عائلته قريبة جداً من عائلتي. يزوروننا باستمرار في البيت ونزورهم. واستمر ذلك حتى بعد عودتهم إلى الشارقة. ولقد أقامت أمي علاقة جيدة مع أخته ومع زوجته الهندية. بيتنا بالطبع كان متواضعاً مقارنة بـ«بيوتهم» سواء في خورفكان أو الشارقة، لكن أخت الضابط: «المدفع» بالذات كانت تحب أن تمدد ركبتيها على الحصير تحت «الشريشة» في بيتنا، متذوقة الرطب الطازج و«الهنمبا»[1] .. وغيرها من لذائذ تلك السنوات القاحلة.

وعلى ما يبدو بأن زوجة الضابط الهندية (كان يُعلق في صدر صالة بيتهم صورة لسفينة من البحرية البريطانية) لم يكن مَرْضِي عنها كثيراً في وسط تلك العائلة، ولربما هي باقية على قيد الزواج لأنها أنجبت من الضابط فتاة تسمى هند وفتى اسمه أحمد، ورغم أنهما يصغرانني في السن بقليل، إلا أنني صاحبتهما طويلاً، وكثيراً ما مارست عليهما دور الأستاذ.

-16-

بعد «غاف المضيف» تأتي أول مدرسة أنشئت في خورفكان، وكانت مدرسة للأولاد، وكان مديرها أو «ناظرها» (جاءت هذه المفردة من نُظّار أو حرّاس الأراضي الزراعية التي كان يملكها الباشوات في مصر) مصرياً يُدعى أبو المعاطي والذي مازال الناس إلى

1- «هنباة»: التسمية المحلية للمانجو، والمفردة على الأرجح هندية.

هذه الأيام يرددون «مثلاً شعبياً» يدور حوله، ويقول:

- «أبو المعاطي ياخذ ويعطي».

ونستشف من المثل بأن أبا المعاطي هذا كان أكثر من مجرد ناظر مدرسة. فهو وإلى جانب كونه من «أبطال الأمثال الشعبية» فإنه كذلك من القليلين من هؤلاء «الأبطال»، والذين سنظل محتفظين بصور فوتوغرافية لهم.

الصور التقطها مصور مجلة «العربي»، ويظهر أبو المعاطي فيها وهو «ينظف» تلاميذه، أو كما كتبت «مادة التحقيق» في تلك المجلة. والتي كتب محررها أيضاً[1]:

«إن عنصراً جديداً دخل إلى هذه المنطقة العربية المعزولة عن العالم.. دخلها يوم أول يناير 1960، ففي هذا اليوم فُتحت أول مدرسة في تاريخ خورفكان.. وتهافت الأهالي على تعليم أولادهم تهافت بلغ الذروة».

سميت المدرسة باسم المهلب بن أبي صفرة. ويروي المحرر حكاية إنشائها أو «قصة تضحية يجب أن تروى» كما يكتب:

... «جمع الشيخ صقر (القاسمي[2]، الشاعر وحاكم الشارقة

(1) الاقتباسات الواردة في هذه الصفحات من الاستطلاع الثاني الذي نشرته مجلة العربي، ع 114، مايو 1968.

(2) ولد صقر بن سلطان القاسمي في قرية الحيرة (الشارقة) عام 1924، وفي عام 1951 تولى حكم إمارة الشارقة خلفاً لوالده حتى عام 1964 حيث نفاه البريطانيون إلى مصر. وفي عام 1972 عاد إلى الشارقة من جديد إلى أن نفي بعد شهور ومرّة أخرى إلى مصر. أقام لسنوات قليلة من التسعينات في أبوظبي، وتوفي في القاهرة عام 1993 .

في تلك الحقبة) أعضاء البعثات الثلاث (الكويتية، المصرية، القطرية) في قصره، وبعد أن شاهدوا السينما الخاصة، وتناولوا الحبارى الذي برع الشيخ في صيده، بدأ الشيخ يحدثهم عن المدرسة الجديدة في خورفكان وطلب منهم أن يتقدم اثنان للعمل هناك، فاعتذر كل منهم بدوره إلا اثنان: محمد سعيد (أتذكر فوراً المذيع أحمد سعيد)[1] أبو المعاطي، عضو بعثة ج. ع. م (هكذا كتب المحرر)، وعبد المجيد جبر عوض عضو بعثة قطر.. فقد تطوعا ليكونا أول بعثة تعليمية في المنطقة الشرقية من ساحل عمان.

وفي خورفكان بدأ الاثنان في العمل والاستعداد لافتتاح مدرسة، وفي أول يوم تقدم 138 طفلاً لقيد أسمائهم.. تقدموا بملابسهم البالية وسراويلهم الممزقة.. ولكن المدرسة لم تكن تتسع لأكثر من 120 تلميذاً، فاستبعد الزائدون عن هذا العدد ثم بدأت مع المقبولين عملية نظافة!.

كان أبو المعاطي يأخذ الطفل من زميله عبد المجيد ويعطيه حماماً، ثم يساعده في لبس البنطلون والحذاء والقميص.. فيخرج الصبي أنيقاً نظيفاً».

لقد كان هذا الجيل والذي سبقنا (نحن مواليد أوائل الستينات)

(1) مذيع مصري عرف بإلقائه البيانات النارية في الحقبة الناصرية، ولقد حُمِّل المسكين بعد ذلك الهزيمة أمام إسرائيل أو ما يُسمى عربياً بالنكسة.

بما يقرب العشر سنوات يجر بواسطة «الشرطة»، أو من كان يقوم بمهامها، إلى المدرسة من تحت شباك الصيد، من المالح في البحر، ومن فوق حمار.

وكان ذيناك المدرسان مجاهدان حقاً وهما يتحملان مشقة عظيمة في تحويل أبناء هذه المناطق السادرة في الشفاهة إلى حبو أولى الخطوات على «درب النور» (طريق المليون المشهور ذاك، والذي يبدأ كما قيل لنا بأول خطوة)، أو كما كانوا يحبذون وصف التعليم حينذاك.

وعودة إلى المثل الشعبي فإن هذا المثل أراد تخليد أبو المعاطي دون أن يدري بأنه قد أُخترع شكلاً حديثاً للتخليد هو الصورة الفوتوغرافية. وحين يوحي المثل بأن أبو المعاطي كان أكثر من ناظر مدرسة.. فلعل محرر «العربي» يشرح جانباً من هذا الإيحاء:

«.. وما كادت المدرسة تُفتح حتى كان جميع أطفال المنطقة يريدون أن يتعلموا.. وبالقرب من خورفكان ثلاث قرى كانت معزولة عنها لعدم وجود طريق.. ففكر أبو المعاطي وعبد المجيد في فتح طريق إلى القرى الثلاث واشتركا في إنشائه..».

ثم حتى لما كبرت كنت أصطدم دائماً بين المزارع أو خلف البيوت بأشكال سوداء عجيبة وكأنها بقايا نيازك سقطت من الكواكب الأخرى، وحين أسأل يقال لي هذه بقايا مشروع فاشل قام به «أبوالمعاطي» لإدخال الكهرباء إلى خورفكان. ثم أنه وفي

الصور التي يظهر فيها خارجاً بتلميذين نظيفين من الحمام يبدو شبيهاً بـ عبدالناصر: استدارة الوجه، الشوارب، تسريحة الشعر، النظارتين السوداوتين.

تحولت «مدرسة أبو المعاطي» بعد ذلك إلى مدرسة للبنات تُقيم في المناسبات احتفالات صاخبة وكان جميع من في الحي كبارهم وصغارهم، نساء ورجالاً، يقفون على جدار المدرسة أو على البراميل يشاهدون الفتيات وهن يؤدين عروضاً راقصة أو تمثيلية. وكان الصبيان على الأخص تنتابهم وهم يشاهدون أجمل الفتيات يتمايلن أو يمثلن، مشاعر متدفقة ومتضاربة يعبرون عنها بصراخ هستيري وصفير على أشده.

-17-

تحيط منازل المدرسين بالمديفي من الشمال. ولقد أقام الأهالي مع هؤلاء المدرسين، وأغلبهم من مصر أو فلسطين علاقات تزاور لا تنقطع.

مأكولاتهم اللذيذة، وأبناؤهم وبناتهم النظيفون جداً والأنيقون أكثر ما كان يثيرنا نحن أطفال الغبار، لهذا كنا نحاول التقرب إليهم، وقد تفتحت مسامات الفضول في أجسادنا، وقبل الأرواح.

وكان من هؤلاء المدرسين – مثلاً – الأستاذ حسين مدرس الموسيقى والذي لطالما وقفنا مذهولين أمام باب بيته المفتوح، متوارين عن أن

يرانا، بينما نسترق النظر إليه وهو جالس في الحديقة الصغيرة أمام المسكن، واضعاً كأس شاي على الطاولة ومتكئاً باندماجٍ شديد على عوده، أو رافعاً ذراع الكمنجة على كتفه واضعاً بحنان وجهه الأبيض المخدَّد على صندوقها الأبنوسي، لكي يبدأ عزفاً شجياً وغريباً في الغروب من نهار ذلك الحي المُلقى كموجة في النسيان.

الأستاذ حسين في ذلك الوقت كان أعزباً، وسيتزوج بعد ذلك، لكن الزوجة الأولى ستختفي، ويتزوج أخرى يسكنان في غرفتين مع لوازهما بناهما أبي في جزء من بيتنا «المعترض»، وكان مؤجرهما الأول والأخير – على ما أذكر، ففي عهد طفولتي – أستاذ الموسيقى، الأستاذ حسين.

الأستاذ حسين الذي صاحبته وزوجته في رحلة «تاريخية» إلى دبي، تلك الرحلة التي كنت أجلس فيها أنا القروي ولأول مرة في سيارة مغلقة ومكيفة منصتاً لهذين الزوجين اللطيفين وهما يتناجيان وينصتان وطوال الطريق إلى مطرب عذب اسمه: عبد الحليم حافظ، كما وفي تلك الرحلة التي حين وصلنا بالسلامة إلى دبي، وبعد أن انتهى «الأستاذين» من مشواريهما (تذكرت: كان السبب في ذهابي معهما هو عمل نظارة طبية، وكانت تلك أوّل نظارة طبية ألبسها)، تواعدا مع أصحابهما. أين؟ في فندق «فينيسيا» على خور دبي. أي في ذلك الفندق الذي سنغشى حانته بعد ذلك أنا وحسن شريف وأحمد أمين المدني.

وكان من هؤلاء المدرسين، مدرس الرياضة والمتحمس كذلك لجمال عبدالناصر، والذي كان يطلُّ علينا من نافذة بيته المطلَّه على «الغليلة»، غليلتنا، بعد العصر في كثير من الأيام. يلقانا نلعب في الفردوس القذر ذاك. ينادينا. يهرع أغلبنا، خاصة تلاميذه، كي نتجمع أمام النافذة.

من النافذة (لا يخرج من البيت كي يقوم بهذه المهمة «القومية») يأمرنا بأن نصطف ونؤدي التحية «الوطنية» أولاً ثم نقوم صفوفاً ببعض التمارين الرياضية، وفي الختام علينا أن ننشد بصوت عال وقوي نشيد: «بلادي. بلادي. بلادي»، إضافة إلى ما يمكن من أغان عن الوحدة العربية والاستعمار. وكنا ننشد، رافعين صوتنا بحماسة لا تحد وكأننا لسنا أمام تلك النافذة، وانما على مشارف القدس.

مدرس آخر هو مدرس الإنجليزي، وكانت لي معه حكاية، ويا لها من حكاية.

-18-

«أبو سهم»، جارنا، يعمل في الكويت، ويقيم هناك هو وعائلته ويعود كل صيف ويبني بيته بالإسمنت، ومن ثم يؤجره إلى أحد المدرسين.

كان ذلك المدرس، إذا ما استطعت التذكر، لديه ابنان وابنة قصيرة وسمينة وبيضاء جداً. وفي «البراحة» بين بيتنا وبيت «أبو سهم»، كنا

نلعب كرة القدم، (كان ذلك قبل الفرقة التي اسسناها أمام المسجد)، بفرقة خليط من البنات والأولاد، مع حضور خاص وبهي لبنات المدرسين، النظيفات والبيضاوات، خاصة ابنة ذلك المدرس الذي يسكن منزل «أبو سهم»، فهي مشاكسة وجريئة، وكثيراً ما كنا نتمرغ معها في ذلك التراب تماماً كما تتمرغ الأمواج.

وكنت بشكل خاص في تلك الأيام ارتاد بيوت المدرسين المجاورة، أحياناً لصلة ما وتزاور يحدث بين بعض المدرسات وأمي، أو بعد ذلك عندما عاد أبي وبدأ صيد السمك، فإنه كان يرسلني بالفائض من صيد اليوم كهدية لأحد المدرسين، أو لأجرب بيعه لبعضهم. شراؤهم للسمك جعلني أجازف (هذه المهنة يقال لها كذلك يزّاف أو جزّاف)[1] وأشتري سمكاً من سوق السمك ثم آتي وأبيعه لهم لكي أستفيد درهماً أو درهمين عن كل «مشكاك»[2]. أبي أو أمي عندما اكتشفا مبادرتي تلك بدءا بالاستيلاء على الفائدة، بل ولم يكفا عن محاولة الاستيلاء على «الرأسمال»، فقررت ترك هذه «الشغلة»، فأنا الذي أقطع الطريق الطويل من المديفي وحتى سوق السمك هناك في «الشرق»، وأفاوض عتاة «الجزافين» ومن ثم أعود لأطرق أبواب المدرسين، وهناك من يصدني، وهناك من يشتري مني بالسلف،

---

(1) من يشتري السمك من الصيادين ويعيد بيعه في السوق.

(2) تشك عدة سمكات في حبل أو خيط وتباع بسعر واحد، وفي المناطق الداخلية كالعين مثلاً هنالك «مشاكيك» (الجمع) للحم المجفف.

وهناك من يهددني بالرسوب إذا لم أعطه «المشكاك» بالمجان، ثم في الأخير يأتي هذان (أقصد أمي وأبي) لكي يستوليا على كل شي. لا. فتركت «الجزافة» بلا ندم يذكر.

ورغم الاحترام الكبير الذي كنا نحمله في ذلك الوقت للمدرس، إلا أنني رأيت في جولاتي تلك أعاجيب كثيرة تنطوي عليها حياة أولئك الذين يحاولون الظهور دوماً أمامنا كقديسين وهم في الحقيقة وببساطة بشر. وعلى العموم كنت أحتفظ بحب وتقدير لأغلبهم إلا أن «زعل» عمري كان على مدرس الإنجليزي. ذلك المدرس كان جارنا، ولكنه أيضاً الذي يعلمني الإنجليزية في المدرسة، وكان تعلمي لهذه اللغة على يديه في بادئ الأمر من «أحسن ما يكون»، وكان يمتدحني لاستجاباتي السريعة في الدروس. والغريب أن هذا المدرس كان يشبه، شبهاً شبه تام، ذلك الشخص الكاريكاتوري في الرسوم التوضيحية التي كان يمتلأ بها منهج الإنجليزي وقتها. بل لعلّني تساءلت هل يشبه كل مدرسي الإنجليزي بطل الرسوم الكاريكاتورية في المنهج الذي يُدرسونه؟ ثم ناهيك عن اندهاشي من رؤية، لأول مرة وربما لآخر مرة في حياتي، بطل «رسوم توضيحية» يمشي على الأرض، وأين: .. هنا في خورفكان.

وكان لبطل «الرسوم التوضيحية» هذا، أو مدرس الإنجليزي ابنة في «منتهى الرقة والجمال»، وتصاحبنا صدفة وصرنا نقوم برحلات شبه يومية في البر والبحر. نشارك بالطبع بقية صبية الحي تلك الحفلات

التي نقيمها عادة في «صنِّية الغليلة» أو في الخرائب. نشاركهم ألعاب شيقة وشقية من مثل: «الثعلب فات» و«عريس وعروسة»، لكننا أيضاً كنا كثيراً ما نختلي بين ظلال الأشجار فتظهر في صدورنا، في قلوب صدورنا، أمواج غامضة، وكأن عاصفة من الريش هبت على تلك الأمواج، فترتفع هكذا فجأة في رؤوسنا، لتنكسر في النخاع المجنون المتجلي في لحظتنا تلك.

ولا أدري كيف، لا أدري حتى الآن كيف، سال دم من تلك الصبية النقية، سال دم في سروالها الداخلي (ربما من شوكة ما)، وأنا لاحظت ذلك إلا أني لم أعره أهمية، لأنني لا أفهمه، واستمررنا في لعبنا الطفولي.

صباح اليوم التالي عندما بدأت حصة الإنجليزي جاء «بطل الرسوم التوضيحية»، وبمجرد ما دخل الصف جاء إلى مقعدي وصرخ:

– قف.

وقفت، فصفعني صفعة مدوية على وجهي أمام استغرابي واستغراب زملائي، ثم ذهب ووقف أمام السبورة وقال يخاطبني:

– يا حقير. لن أكون رجلاً أبداً إن لم ترسب هذا العام والعام الذي بعده والذي بعده.. لن أكون رجلاً إن لم ترسب طوال حياتك..

زاد استغرابي، ثم تركني واقفاً وانصرف إلى تصفح الدفاتر التي أمامه على طاولة المدرس فقلت:

– هل أجلس يا أستاذ؟

فرفع وجهه «التوضيحي» وقال:

– اجلس يا وغد. أو أقول لك: أنا لا أطيق رؤيتك في صفي، أخرج..

فخرجت من غرفة الدرس وأنا مصدوم من تصرفه، وبينما كنت أمشي حائراً ومهموماً في ممرات المدرسة فإذا بـ«الناظر» قدّامي وهو يحمل عصاه «الشهيرة»، والتي أعرفها «حق المعرفة»:

– ماذا فعلت اليوم أيضاً؟

– لم أفعل شيئاً يا حضرة الناظر.

– ولماذا أنت إذن خارج الصف؟

– طردني مدرس الإنجليزي.

– ولماذا طردك؟

– لا أعرف.

– لا تعرف.. تعال معي..

تبعت «الناظر الرهيب» إلى الفصل. دخل. وقف التلاميذ. ألقوا التحية «النشيدية» على «الناظر». جلسوا:

– ماذا فعل؟

سأل «الناظر»، فانتظرت أن يقول المدرس «التوضيحي» شيئاً أفهم منه على الأقل لماذا صفعني، فقال ذلك المدرس الجبان:

– لم ينجز واجباته المدرسية طوال هذا الأسبوع..

ولأن «الناظر الرهيب» كان يتوقع مني مصيبة أكبر من هذه، فلقد شدني من أذني وقال:

– يا أستاذ، إذا لم ينجز واجباته في الأسبوع القادم فأرسله لي..

وخرج.

خرج «الناظر» وأنا لم أفهم، ولأنني لم أفهم ذهبت مساء ذلك اليوم إلى بيته، بيت المدرس وطلبت منه وكما يطلب «الأشخاص المتحضرين» التحدث مع ابنته ولكنه طردني من أمام الباب شر طردة. فماذا حدث؟ ولماذا تغير عليَّ هكذا؟

وظل «بطل الرسوم التوضيحية» هكذا، وظللت محتاراً في معرفة سبب ذلك إلى أن اصطدت ابنته ذات يوم في مكان خارج البيت فسألتها:

– لم؟

– الدم في السروال.

– إنها الشوكة.

– ولكني قلت لأبي: أنت.

– أنا.

واستمر ذلك المدرس «البطل» على معاملتي بجفاف وقسوة.

وبالفعل رسبني في مادة الإنجليزي لسنتين متتاليتين. أنا وبالمقابل دخلت معه في العند. لم أعد أدرس تلك المادة ولا أتجاوب، هكذا

خسرت وإلى الأبد إقامة أية علاقة مع هذه اللغة «العالمية»، ولقد كانت خسارتي كبيرة وعظيمة على هذا الصعيد، ولقد استمر تأثير هذه الخسارة السلبي على حياتي، على كل مراحل حياتي، وسيستمر، إذ كثيراً ما أجوع جوعاً لا شفاء منه لقراءة كتاب لم يترجم إلى العربية.

لكن ومقابل هذه الخسارة العظمى تلقيت هدية حياتي ووجودي من مساكن المدرسين تلك. كان هؤلاء وعندما يهمون بالعودة إلى أوطانهم لقضاء الصيف أو انتهاء عقودهم، يرمون في «زبالة العودة» تلك بالصحف والمجلات والكتب التي لا يستطيعون حملها معهم. كانوا يرمونها هكذا ببساطة. أما أنا فلقد كنت أسبح في تلك الزبالة جامعاً كل ما توفر من تلك الأوراق وعائداً بها ركضاً إلى البيت. أكدسها، إذ قريباً وقريباً جداً قد أرتكب شيئاً ما، فيعاقبني أبواي بالجلوس في البيت. وكأي شخص مخاتل، أتقبل ذلك القرار المتكرر بشكل شبه يومي، وبطيبة خاطر. إذ أعود إلى تلك الأكداس من صحف ومجلات وكتب وأوراق، اقرأ فيها، أو أبدو أنني أعمل فيها، حتى تهدأ الأمور، وينفتح باب خروجي شيئاً فشيئاً، وبمجرد أن ألمح أنه مفتوح لإخراج جسدي، أنطلق إلى ذلك الباب لأخرج، واضعاً أسرار قدمي في اذن الريح.

هناك، حين كنت أفعل ذلك، و«تحت الشريشة» غالباً تعرّفت على أفضل إدمان أُصبت به على الاطلاق. وتمرّنت على أفضل موهبة، أفضل قدرة، أفضل ما تعلمته في الحياة: قراءة الكتب، التفكير مع

القراءة، الجنون مع القراءة، الحلم مع القراءة، الحياة في القراءة، والموت أيضاً.

باب الجبل

-1-

كان الباب الثاني لبيتنا «المعترض» يطل على الجبل. فالمديفي حي يقع على مقربة من الجبال، جبال هي بمثابة الحلقة الوسطى من الجبال التي تحيط بخورفكان، أو ما يشكل من زاوية نظر أخرى ظهر ذلك الدرع الذي يغطي تلك السحلفاة المتجهة نحو البحر.

وظاهرة السكن على بُعد ما من الجبال تكاد تشمل عموم قرى الباطنة والمنطقة الشرقية. إذ عادة ما يتم السكن قرب البحر، وتكون المزارع والنخيل خلف البيوت، ثم يقع الجبل..

الشحوح[1] وحدهم لا يُحبذون هذه العادة. فهم في سكنهم يحاذون الجبل حتى كأنهم يخشون الغرق إذا ما ابتعدوا عنه.

ولعل ذلك يعود إلى اعتمادهم عليه في كل أمورهم المعيشية. فمن أحجاره ينبون بيوتهم وعلى سطوحه يزرعون ويرعون مواشيهم، ومن نباتاته وأشجاره يجمعون الحطب والعسل ليبيعوه. حتى أن فنونهم التي لا تعرف من الآلات الموسيقية غير الطبل، وصرخاتهم التي تتعالى عند أدائهم لهذه الفنون، لا يكاد يكون لها معنى بعيداً عن أصداء الجبال وفضاءاتها.

وأكثر ما أتذكره عن الشحوح مسيرتهم السنوية مع أغنامهم. إذ يُقال بأن هؤلاء، أو «فخذ» منهم ربما، يعقدون في يوم مخصص من

(1) قبيلة جبلية تسكن شبه جزيرة مسندم وتعيش على تربية الأغنام والزراعة وجمع العسل والحطب.

أيام السنة احتفالاً وسوقاً شعبياً كبيراً. ويقال إن ذلك يحدث في إحدى قراهم المعلقة على رأس من رؤوس الجبال في مسندم وتدعى «الروضة».

وعلى الأرجح فإن ذلك الاحتفال يُقام بعد موسم الحصاد. إذ أن سكان المنطقة كانت لهم طرقهم في تمهيد السفوح وزراعتها فيما يسمى بـ«الوعوب»[1]، لهذا كنت ترى بساتين النخل والحمضيات متدل اخضرارها على الوديان، أما الآن فقد اختفت هذه الحرفة، وازدادت الجبال وحشة..

ويُقال بأن الشحوح على تلك المرتفعات كانوا يزرعون العنب والقمح والشعير ومزروعات أخرى لا يطيب لها العيش في الساحل.

بعد انتهائهم من ذلك الاحتفال يسيرون بالفائض من مواشيهم ومزروعاتهم ليبيعونها، قاطعين الساحل ذهاباً وجيئة. ولقد كنا نستيقظ في الصباحات ونراهم مارين يعلو قطعانهم الغبار والضجيج. عندها كان الأهالي يحرصون على ألا تختلط مواشيهم بتلك القطعان الجارفة. غير هذا فلقد كانت لأمي صديقة شحية تُسمى: «حلاوة». وكانت كلما أتت إلى بيتنا تُحضر هداياها الغريبة واللذيذة. قطع من الجبن وأنواع أخرى من منتجات الحليب، وقروص الجبل الغليظة السابحة بالعسل. وكانت لنا صلة أيضاً بقوم زيد الذين كانوا

(1) جمع «وعب»: حوض مزروع بين الصخور.

يسكنون في أقصى الجنوب الغربي من المديفي. وكان يسكن إلى جوارهم رجل غريب يدعى السيوفي وهو رجل رأيناه من طفولتنا وحيداً وملثماً كرجال الطوارق.

ثم بعد أن رُصفت شوارع خورفكان وظهرت تلك «الأحياء الجديدة» ظل السيوفي بلثامه وخنجره وإزاره وعصاه يجوب الشوارع، والأطفال خلفه. إنه الصورة المثلى عن اغتراب جيلٍ عصفت التحولات بكل ما حوله إلا أنها لم تخاطب لا أفكاره ولاً أحاسيسه، ولا الكيان الإنساني الذي ينطوي عليه أي فرد.

وأتذكر بصعوبة رعاة محترفين إلا أنهم اختفوا بعد أن قلَّ الاهتمام بتربية الأغنام، لكن الرّاعي الذي لن أنساه هو جارنا علي بخفِّه الكبير. فالأحذية لم تظهر في تلك المناطق إلا مع المدارس وكان الرعاة وسكنة الجبال معروفين بالمشي حفاة، إلا أن الجار علي بدا مُصراً على خفه العجيب الذي لم يتخلَّ عنه حتى وفاته، مثيراً به غبار تلك المفازة الممتدة من الحي وحتى الجبال.

مفازة شهدت الرحلات الفعلية والمتخيلة للطفولة. فأنا – على الأقل – لم أرتد الجبل على الدوام كما هو حالي مع البحر. إننا نذهب إلى الجبل كي نبحث عن شيء ما: عن شاة ضائعة أو عشبة كدواء أو لجمع «العسبق»[1] كحطب، أو للبحث عن ظله!

---

(1) «العسبق»: شجيرة تنمو في الجبال وتستخدم عادة لإيقاد النار.

فلا أحد يستغني عن «الجعدة»[1] المداوية لكل الأمراض. أما الحطب فإن النساء وبمعية أطفالهن يتجمعن ويرحلن إلى حيث تجلس الجبال. وعند الغروب تراهن عائدات إلى بيوتهن حاملات «الأوقار»[2]، بينما كانت الفرصة، كل الفرصة، قد سنحت للأطفال لكي يتعرفوا على السيد الجبل عن قرب. من صعوده المتعب والشيق إلى هبوطه الفخ. من وديانه التي تقود إلى الأحشاء إلى أعاليه القصية وأحجاره المتأرجحة بين الثبات والقلق.

إنك من أي نقطة في الجبل تنظر من عل، تخرج من داخل المشهد وترتفع. وكلما صغر المشهد الذي سبق وكنت فيه، خرجت من ذلك الرحم الذي كنت تقطن فيه وأُلقيت في فراغ السمو. في النظرة التي تكاد تخلو من كل معنى إلا كونها نظرة.

فالحي الذي تسكنه يبتعد كلما توغلت في البحر، ولكنه يبتعد بشكل أفقي، أما حينما تصعد الجبل وتنظر إلى البيت الذي أنت تسكن فيه فإنك تراه كأنه بيت خرجت منه، وعليك أن تنزل، أن تتحسس موطئ قدميك أولاً وتنزل كي يكون بإمكانك العودة إليه من جديد.

التيه في الجبل تيه في التفاصيل، في الجدري الذي أصاب وجه الحجر، في الجذري الكامن في قلبه. في بياض الصخر المغري. في

(1) عشبة جبلية تستخدم كدواء للعديد من الأمراض.

(2) «وقر»: مفردة فصيحة وردت عدة مرات في القرآن، وهي بمعنى: ثقل أو حمل.

الظلام الكثير الذي تمتلأ به تلك الصخور ويكوِّن كل الجبال، أما التيه في البحر فعلى العكس. إنه تيه في الوضوح الغامض. تيه في الماء، في المتغير. تيه كالشعرة البيضاء في عين الريح.

الليل حياة الجبل، أما على البحر فالليل يمشي بلا ذراعين. يتمزق الليل. وعندما تريد البحث عن ليل خاص، عن ليل شخصي فجاور الجبال كما يجاورون «البيت الحرام»، هنالك ينزل الوحي وتحدث البحوث عن الظلام، عن ظلام الذات، كما عن ظلام الجميع والكون.

إن الجبل الذي يبدو واقفاً كحيوان خرافي في النهار، يجلس على ما يبدو في الليل لكي يفكر في وقفته تلك ويفرش حصير ظله ليجلس. المخيف يزحف من تحت الجلسة، ومن ذلك الظل كذلك تكون للسكينة عدة جفون.

وعن ظل الجبل، حوله، اختلفت أنا وبعض أقراني حول الفرق بين هذا الظل وظل البحر. فنحن الذين أدركنا للتو أن ظلالنا تلازمنا أينما ولَّينا، وان ظل الجدران يذهب بعد أي غروب شمس إلى الغرف كي ينام، لم نعثر على ظل البحر. سطح البحر ظل للسماء والبحر لا ظله له. لكن ما اختلفنا عليه حقاً هو ظل الجبل. وهل للجبل ظل أم لا؟

بالتأكيد له ظل كبير ومديد.. ألا تراه؟ هكذا صاح أحدنا. لكن الفهيم بيننا قال: هذا ليس بظل.. تعالوا نصعد الجبل كي نتأكد أهو ظل أم لا؟ تعالوا نصعد. فركضنا في عز الظهيرة نحو أكبر جبل. في

الحي، جبل من جبال «الحوامي» نبحث فيه عن ظل الجبل. وكلما صعدنا لا ينتهي الجبل، وكلما صعدنا: كل شيء ظل.

ولقد كان ظل الجبل يتبعنا كلما نزلنا. يتبعنا حتى بيوتنا. نُغلق الباب لكنه يظل يتبعنا. يرسل ثعالبه ويرسل قططه البرية وصباحاته ويرسل قمره ويرسل ظلاله التي لا تُحصى، ويتبعنا.

الأحلام ظل جبل الشخص. واللاوعي اسم آخر للوديان. وطالع نبتة خارجة بين صخرتين في جبلٍ كي ترى الموت على أشده، وهو يندفع بالحياة. ولكي ترى أهمية الماء فهو صوت الباطن وصورة الحركة. ولكي ترى طفولتنا كذلك وهي تحاول اللاتفكير في الجبل، تماماً كما هي محاولتنا الفاشلة باستمرار لتجنب التفكير في الموت.

إن الغرور أعمى ولكنه يشبه الوادي. ويشبهها أكثر حين يبقى طوال شهور عديدة من السنة حافراً جسده في الأرض، مستلقياً كي يتلقى قطرة ماء من الشحيحة السماء فلا يتلقى إلا الجروح. جروح الحجر أكثر إيلاماً من جروح البشر. إنها بلا دم ولا وهم. إنها فم من عدة شقوق يكاد يشرب الشمس.

أما حين ترتكب السحابة الفاحشة، وتسقط القطرة على صفيح ذلك العطش الرهيب، فلا شيء قادر على الغفران كقلب ذلك الجبل، وعلى الإيثار أيضاً.

إيثار هو كذلك غباء أصم. فكرة تجعل ساق النبتة نوعاً من الأحجار المقدسة، وتجعل قطرة الماء بوقاً للبرق.

-2-

ما كان يخدش دوماً براءة تلك الرحلة إلى الجبل، العمل المكلّف فيه منذ استيقاظي على صباي: رعي الأغنام.

فبعد أن اختفى الرعيان، وانتظمت أنا في الدراسة، كان عليّ أن أسرح بأغنام أمي إلى «السيح»[1] ما بين حيِّنا والجبل، أي إلى حيث بإمكاني إيصال تلك الأغنام إلى المنطقة التي حين تراها قد تقتنع بأنها وصلت إلى المرعى فعلاً.

قبل هذا المشوار في المفازة، كان عليّ الاستيقاظ باكراً وسقي الأغنام وإطعامها.

- إنها ذاهبة إلى المرعى لتأكل!

أتشكى لأمي، لكنها وكمن يشك بأن الأغنام ستجد في ذلك المرعى شيئاً تأكله، تلح عليّ بأولوية إطعامها.

يُجفف التمر وتُعمل مأكولات الأغنام على مسطح عالٍ يُصعد له بدرج. وفي يوم من أيام المدرسة، وبينما كنت مستعجلاً سقطت على ذلك الدرج. يدي وُضعت في الجبس الذي وصل إلى خورفكان مع القار.

لم أفهم وقتها لمَ وُضِعت يدي في ذلك القبر الصغير الأبيض الذي تسلَّيت أنا وزملائي بالمدرسة في الكتابة عليه، كما لن أفهم لماذا عليّ إطعام أغنام أمي، ومن ثم أتكبد أكثر من مشقة كي أجمعها بصعوبة

(1) تعني مفردة «السيح» أيضاً البرية أو الخلاء.

أمامي، وأقودها إلى مرعى نعرف مسبقاً بأنه قاحل.

والأغنام لا تحتاج إلى من يُعيدها، فهي تعرف الدرب، لكنها ما دامت مرصوغة في «الدرس» (شكلت هذه المفردة بالنسبة لي التباساً خطيراً بين زَرْب الغنم المسمى: «درساً» في اللهجة، ودرس المدرسة) تحتاج إلى ما تمضعه على مهل.

هكذا قُدر عليّ في تلك الطفولة الشقية الذهاب بعد عصر كل يوم إلى «الحياوة»، ذلك الحي المجاور لحينا، كي أُحضر ما يستحقه مضغ الأغنام، ولم تكن الوجبة التي أحضرها مناسبة أبداً، في رأي أمي، بالرغم من أنني اعتقدت دوماً بأنني اتبعت تعليماتها وبالحذافير، اذ غالباً ما أذهب قصداً إلى مُزارع اتفقت معه هي سلفاً. أبحث عن ذلك المزارع أينما كان، في بيته أو في المزرعة أو في المسجد. وعندما أجده أتبعه إلى حيث يزرع مأكولات الأغنام تلك من «قت» و«مسيبلو» و«حشيش»[1] وغيرها. أحملها طازجة كمن يحمل خبزاً حاراً من التنور وأعود بها مسرعاً إلى البيت، وبعد أن أفرزها إلى ما تحتاج إلى أن تأكله الأغنام اليوم وما تشتهي أكله غداً، تلاقيني أمي وتنهرني، لهذا السبب أو ذاك، فأنا في نظرها لا أعرف كيف أعدُّ أطباق مائدة المضغ هذه.

(1) نباتات تستخدم كعلف للحيوان، وتنطق قت: «جت»، والمفردة فصيحة.

—3—

الطريق إلى حي «الحياوة» أو هو نفسه يشكل محوراً أساسياً من محاور تلك الطفولة.

كنت أثناء بحثي عن المزارعين أتوه، أتوه أو كأنني أتوه في ذلك الحي، فألعب مع هذا الصبي أو تلك الصبية، وأدخل هذا البيت أو ذاك، ويشغلني أمر ما في أحد أزقته فألهو إلى أن يطردني أحدهم أو تغرب الشمس أو يُبحث عني. لكن أهم الأمور التي شغلتني، ومازال بعضها يحوم في ذهني اليوم، من ذكرياتي في ذلك الحي، هي أولاً: يد أولئك المزارعين الخبيرة والمجتهدة والمنتجة والمغموسة بنزاهة الطين والماء..

ومن انشغالي بهذه الأيدي الحية، انشغل كذلك بتلك الأسماء العديدة للشجيرات المزروعة خصيصاً كطعام للماشية. فالقادر على الإنتاج وحده الذي يملك الحق في التسمية، وتلك حقيقة لطالما نتناساها في علاقتنا مع اللغة أو مع الحياة. وغير أسماء الطعام المُعَد لمائدة أغنام أمي، فإن سماء رأسي في تلك الطفولة امتلأت بالعديد من أسماء وأنواع النباتات والحشرات، وتحولات الرمل والطين والحجر والماء. في البيت أو في الحي. في البستان أو البحر، أو على صفحات الجبل.

ولقد اختفت كثيراً من مفردات معجم طفولتي، من ذاكرتي ومن حياتي. وعلى الأرجح اختفت من ذاكرة الجميع في هذه المنطقة.

إن اختفاء كهذا يدل على انقطاع كبير مع الطبيعة. فنحن البشر نقيم علاقاتنا مع الكون عبر الأسماء. فالمعرفة اصطلاح، وعندما نستلب كلياً ونكون المستهلكين، نفقد بالطبع القدرة على تسمية الكون، وبالتالي وعيه.

ولم أفكر من قبل بدلالات أسماء كـ: «المديفي» أو «حياوة» لكن بالتأكيد كانت خلف هاتين التسميتين حكايات هي بالضرورة من قبل بُناة ومنتجين يُسمون. كما لا أظن بأن اسماً يطلقه موظف ما بشكل روتيني على شارع أو حي، سيبقى. فلا هو من يبنيه أو ينتجه ولا الذي يعيشه ليبعث أي روح فيه.

إن الحياة كما اللغة التي نصطلحها أقوى بكثير من «توطين» الاستهلاك.

الأمر الآخر الذي شغلني في حي «الحياوة»: بيوت طينية كثيرة ومهجورة. وعندما سألت عنها قيل لي بأن هذه البيوت هي «الحياوة» القديمة، وقد ضربها مرض الجدري حتى قضى على أغلب سكانها، وها هي البيوت وقد بقيت على حالها منذ تلك اللحظة الملعونة.

إنها متحف للموت وعظة للأحياء.

فالذين نجوا من ذلك الوباء لم يعودوا للسكن في هذا الحي أبداً. إنهم يحومون حول المأساة، عن بعد، مخافة أن تلسعهم. وحينما كان الأطفال يدخلونه للعب أو لغيره، فإنهم على العموم يقتحمونه لأنهم أطفال أو «جهّال» ليس أكثر.

في انتظار مزارع كنت ألهو مع صبيان «الحياوة» في تلك الخرابة المأهولة بالموت.

هناك الحديث لا يدور عن عفاريت أو غيلان وإنما عن الموت.. قدور معدة للطبخ مازالت جالسة بلا نار على رماد المواقد، أَسرَّة بألحفتها المهترئة وقد نخرها الغبار والقِدَم..

تفاصيل كثيرة تركها الموت في تلك البيوت لا تدل على عظمته فحسب، وإنما على فتنة الحياة كذلك.

ولم يكن حي «الحياوة» القديم هو وحده الذي سمعت حينها عن اختفائه نتيجة لوباء. فـ«وادي شي»، المنطقة التي جاء منها مؤذن مسجد حينا وإمامه خلفان مفتاح، كانت وكما روى لنا هو نفسه تسمى «رفيصه»، ولقد اجتاح «رفيصه» وباء الجدري، كما اجتاح «الحياوة» القديمة، مما دفع الناجين للسكن والمعيشة على ذروات الجبال المحيطة بهم.

جحور وأغورة شبيهة بأعشاش الثعالب قيل لنا بأن البشر كانوا يسكنونها. ومرة يُقال لنا بأنهم سكنوها هرباً من الجدري ومرة هرباً من البرتغاليين أو الإنجليز.. كل ذلك من قبيل الشائعات التي تحاول فك ألغاز تلك الفجوات المخيفة والمفتوحة في أجساد الجبال، لكن المؤكد أن الشحوح، تلك القبيلة التي خطفنا على ذكرها من قبل كانت تتودد للجبل فتسكن في مهابطه، كما تقيم بيوتاً من صخوره تشبه التلال والأكواخ والحُفر.

—4—

«وادي شي» هو الوادي الذي تشرب منه خورفكان كلها ماء عذباً ولذلك بُني بعد ذلك سد يحتجز مياه المطر، وتحت مياه ذلك السد تقبع «رفيصة» الآن.

ولمن يريد التخيل، فإن الأشباح تخرج كل ليلة كي تسبح تحت مياه السد بينما جدران الطين تذوب وتتحول إلى خيوط من عشب والأرواح تتردد بين أزقة الماء متحللة من كل شيء، في كل شيء.

وعندما يتدفق «وادي شي» إلى خورفكان تكون «الحياوة» على يمينه، وأول ما يخرج من سلسلة الجبال إلى بطاح الساحل الممتدة أمامه، يقع على يمينه لغز ومبنى يُسمى: «الوثن».

سمعت قصصاً وأقاويل وتكهنات كثيرة عن هذا البئر. وأنه كان غرفة بيضاء يتعبد فيها متصوف يدعى الشيخ منصور أو الشيخ المنصور عبدالرحيم البهلول. وكان أمام الغرفة سدرة شاهقة تحتها بئر يُقال بأن من يسقط فيها شيئاً (من المعول وحتى الإبرة) يظهر هناك في البحر. وإلى جوار البئر كانت تتناثر قبور طويلة وعريضة بشكل غريب. كما يحرس هذا المكان من الجبل أكثر من حصن.

حين زرت هذا المكان في صباي عدة مرات وتجولت بين أطلاله، كانت القلاع والغرفة أنقاضاً ولم تبق إلا السدرة والبئر والقبور. هنالك فقط بعض المعالم للغرفة التي رغم صغرها كان تنقسم إلى قسمين واضحين. أما الشيخ منصور فقد شوهد من قبل وهو يغادر

بقافلة محملة بالكتب، أو كما يروي إمامنا خلفان بن مفتاح.

تمنيت في صغري لو التقيت بهذا الشيخ وطالعت كتبه (تلك المحروقة في الغياب). أو على الأقل لأسأله عن «كتاب الغزالي»، عن ألغاز «كتاب الغزالي»، أو ذلك الكتاب المنسوب للإمام الغزالي، وهو الكتاب الوحيد الذي يعرفه عموم الناس بعد القرآن.

إذ لطالما سمعت أن هناك من يزور شخصاً محدداً في أحلامه ويدله على أن هذا الكتاب مدفون في مزرعة معينة فيذهب الشخص ليجد الكتاب، أو يكون هناك ساحر مطلِّع وبشروط محددة وقُرب وفاته ينقل اطلاعه في هذا الحقل، بما فيه حيازته ومعرفته بكتاب «الغزالي»، إلى مريد مختار.

وإن مثل هذا الكتاب من السهل أن تفتحه كي تجلب من خلال قراءته الجن، وتستخدمهم لما يضر أو لما ينفع، لكن من الصعوبة أن تعيدهم من جديد إلى مكانهم الخفي، وتغلق الكتاب.

وباعتقادي فإن الحبل السري للسحرة مسحوق في الجبال. هناك يقرأون «كتبهم» الغامضة والحروفية وهناك يعثون بأشباحهم المختلفة والغريبة والمخيفة. وفي المغارات يقيمون أعراس أرواحهم، ويستدرجون أو يطيرون بضحاياهم ليأكلوا أجساد أرواحهم.

وكنا كصبيان متهورين كفاية كي ننخرط في ذلك العالم الخطير، لكننا لم نعثر على ساحر يختارنا ويصطفينا، ولم يزرنا أحد في الحلم كي يدلنا على الموقع الخفي حتى ولو كانت المدفونة فيه قشة..

أما عن الكتب «الحقيقية» فلم أجدها لا عند الشيخ منصور، ولا من مصادر أخرى. لقد وجدتها على «حقيقتها» عندما اقتادتني أمي ذات صباح إلى مكان يقال له: «المدرسة».

وكان الطريق إلى المدرسة يمر بـ«الحياوة». فبعد أن نعبر «الغليلة» المجاورة لبيتنا نمر بجوار سكن المدرسين وثم ندخل في سبخة مليئة بحشائش «الهرم»[1] و«القلمان»[2] ذات الرائحة المميزة عند الصباح. ومن ثم وعبر وادٍ صغير جاف تحيط به البساتين نقطع الطريق حتى نصل إلى مدرسة «الخليل بن أحمد». في صفوف تلك المدرسة كنا نفتح الكتب ونغلقها بلا جن، وكانت نوافذ المدرسة الكبيرة مطلة إما على مقبرة مجاورة أو على بساتين وبيوتات «الحياوة». من تلك النوافذكانت تخرج أرواحنا ساعية للتسكع في الطرقات أو بين شواهد القبور أو معلقة على أغصان إحدى شجرات المانجو، ولا نعود إلى «واقع» الصف إلا مع ذلك الصوت الهادر الرهيب من المدرس وهو يصرخ قائلاً:

– يا حيوانات يا حمير يا أغبياء يا سفلة.. لقد قطعت المسافات كي أعلمكم النور وأنتم الجهلة والقذرون لا تريدون أن تتعلموا ومازلتم تودون العودة إلى ذلك الغبار وحلب الأبقار..

---

(1) «الهرم»: نبات كانت تتغذى منه الجمال، ويستخدم كمسهل.

(2) «القلمان»: نبات كان يؤكل مع الوجبات.

يا حيوانات ويا حمير ويا سفلة..

وإذا ما كنا نأتي إلى المدرسة في الصباح مستعجلين فإن طريق العودة إلى البيت لم يكن كذلك.

كنا نرمي حقيبة المدرسة عن ظهورنا كيفما اتفق ونلعب في «الحياوة» أو على امتداد الطريق: نجمع «نبقاً»[1] من السدر، أو نطارد «السراريح»[2] من بين أشواك «السمر»[3]، أو ندخل البساتين لنسرق «تباشير» أثمار المانجو والليمون الحلو والسفرجل والجوافة والرطب، أو نجد فتيات «الحياوة» وهن عائدات من مدرستهن في المديفي أو..

المهم أن نتأخر في العودة إلى البيت. وذلك طبعاً لا يمر من دون عقاب قاسٍ إلا أننا كنا -تحديداً- لا نشبع من الضرب. وأن المزارعين يتكبدون عناء المجيء من «الحياوة»، وكان في ذلك الوقت حيّاً بعيداً، إلى أهلنا في المديفي كي يشكوا منا، وكذلك أهالي الفتيات. رغم ذلك، فإن الشيطنة التي تتقافز من صدورنا أثناء الطريق تتملكنا، فلا نكف.

(1) ثمار السدر.

(2) «السرّاح» أو «الصرناي»: حشرة طائرة تصدر أصواتاً.

(3) شجرة صحراوية، والمفردة فصيحة.

-5-

أعاجيب كثيرة شهدتها في ذلك الطريق.. منها مثلاً أنني في أحد الصباحات كنت ذاهباً وحدي إلى المدرسة، ولعلّني كنت أبكي لسببٍ ما. وما أن تجاوزت سكن المدرسين حتى رأيت رجلاً يلبس ثياباً غريبة (لعلها من الهند) ويحمل آلة موسيقية لم يسبق أن شاهدتها.

دهشت في بادئ الأمر من مرأى ذلك الرجل وفي ذلك الوقت والمكان. حدثني فلم أفهم شيئاً، أو الذي فهمته أن أُخرج الدرهمين، مصروفي اليومي، من جيبي وأعطيها له.

أخذ الدرهمين وبدأ بالعزف على تلك الآلة السحرية. لا أعرف كم استغرق لقائي بذلك الرجل الغريب. لكن ذلك كان يشبه أن يزورك أحد في الحلم ويدلك على كتاب الغزالي.

معزوفة ذلك الصباح حُفرت عميقاً في داخلي، ومازالت تصدح في قفص روحي الصدري. أنها من المعزوفات التي يمكن أن تكون قادمة من الجينة، من اللاوعي، من النسيان، من الفيض. من ذلكَ الاحتكاك الأبدي بين الروح والجسد، بين الوعي والحياة.

ومن أعاجيب ذلك الطريق أيضاً «الزطوط»[1] أو الغجر، فقد كانوا يأتون في موسم معين من السنة، ويسكنون تحت «غافة» من «غاف الحياوة»..

---

(1) الزطوط: الزط، قوم من الهند يُقال بأنه لا أصل لهم واستقروا في عُمان وقريبون منهم «البياسرة» ومفردها: «بيسر»، أي الذي بلا رأس!!

يحمل إليهم الناس كل ما يحتاج إلى تصليح من أوانٍ أو أدوات حديدية أو نحاسية. وكنا نراهم كعائلات وهم يستيقظون في الصباح: رجالهم ونساؤهم وأطفالهم ودوابهم تحت تلك «الغافة».

بعض صباياهم الموشومات واللابسات ملابس مزركشة عجيبة يأتين حتى المديفي. يطرقن أبواب البيوت كي يتسولن أو ما شابه، وكن أيضاً يبعن «الدوك»: أحشاء المحار المجففة بالرماد.

بعد سنوات اختفى أولئك «الزطوط»، ولكنني رأيتهم مرة وفي ناحية أخرى من خورفكان ولكن بشكل مختلف كلياً. كانوا حقاً يفترشون ظل شجرة، لكن وبدلاً من الحمير كانت معهم سيارة، وكانوا يجلسون خلفها مشدوهين وهم، يشاهدون، ويا للغرابة، تليفزيوناً.

—6—

عندما تخرج من باب البيت، أو تطل من نافذة المدرسة ترى حولك الجبال كالأصنام الصخرية الضخمة واقفة حتى عنان السماء. وفي الحقيقة، فإنك حين تكون في خورفكان سترى الجبال من أي نقطة تنظر منها. ويمكن القول إن خورفكان قوقعة حجرية كبيرة، كما يمكن القول إنها مجرد صندوق جبلي.

الجبل عالم خاص بذاته، مستقل بذاته، عالم له ليله ونهاره، له حيواناته وأشجاره وكواكبه، له ناره وماؤه. ولكن مثل هذا العالم

يفتن ويتألق وينعزل ويثرثر ويشع ويتحرك حين يلتقي في البحر. حين يدخل في البحر. حين يضيع هناك.

لا نريد أن نسأل الطيور عن الجزيرة التي هي عبارة عن صخرة وحيدة، كما لا نريد سؤال السفن الخشبية المفقودة عن تلك الأفخاخ الحجرية التي تكمن تحت الماء.

ولقد أثار عين طفولتي دوماً ذلك الساحل الصغير الأبيض جداً، وهي مسافة تفسحها الجبال للرمل، هناك في البحر (يقع هذا الساحل الآن مقابل الفندق الكبير والوحيد في خورفكان). إنه ساحل نموذجي لممارسة أحلام يقظة الهروب.

بإمكانك أن تكون هناك على ذلك الساحل حي بن يقظان. أو بإمكانك أن تكون بحاراً غرقت سفينته ولقد سبح حتى وصل إلى هنا (على الحلم أن ينسى بأن ذلك الساحل لا يبعد إلا ذراعين مائيين عن ساحل خورفكان) وهو الآن يوقد النار بانتظار مرور سفينة أخرى تنتشله، كما بإمكانك أن تكون البطل النموذجي لمثل هذه الأحلام فأنت من قطع صلته بالعالم، هجره إلى الأبد. وبنى هناك كوخاً من قصب الجبل، وعاش يصيد من تلك الأسماك ويأكل. أما الماء، من أين نأتي له بالماء؟ يغلي ماء البحر ويشرب..، فلقد تعود على ماء كهذا.

كذلك، فإن من جبال البحر التي تفتنني، ما يسمى بـ«صراط الخور»[1]، بالبدء فلنتوقف عند الاسم. «صراط»! ما الذي تعنيه «صراط» هنا؟. قد تعني «مصرط» أو بلعوم، مِنْ «صَرَط»، أي ابتلع. ماذا تبتلع تلك الجزيرة بالتحديد؟

لهذا السؤال جانبين، ساحلين، شاطئين، ضفتين: واحدة تتعلق بالبر، والأخرى بالبحر.

سنبدأ بالبر، فخورفكان، وكقفص جبلي تعيش على الآبار «الارتوازية»، مع اعتمادها بالتأكيد على ذلك المخزون المائي في «وادي شي»، لهذا فإن آبارها هي محاور حياتها وحياة العيش فيها، كما هي أيضاً محاور أسطورتها. وكأي اسطرة فإن الأمر يبدأ من الأسماء، فهنالك «طوي» أي بئر يُقال بأن من حفرها عم أمي علي بن عبود تدعي بـ«طوي القندة»، والاسم تصغير «للقند»: مكعبات السكر، كما حفر ابن عبود كذلك «طوياً» أو بئرا أخرى تدعى «طوي الفؤاد». أما «طوي الممزر» فقد حفرها سليمان بن راشد النقبي، هكذا يقال، ويُقال أيضاً بأن مَنْ حفر طوي «المشخولة»[2] رجل يدعي بـ«المشتغل».

---

(1) «صراط الخور» اسم جبل في مدخل خورفكان من جهة البحر، وربما جاءت التسمية من «المصراط» أو البلعوم.

(2) من «شخل»: صفّى.

حول تلك الآبار أو «الطويان» تمركزت روح البلدة والتي هي أبداً بحاجة إلى الارتواء من ماء الوجود. نفهم هذا، ولكن الذي يحفر في «الأسطورة» آباراً أخرى، أن تسعى مياه الآبار (الواقعية جداً حتى الآن) تحت الأرض، تمشى تحت الأرض وتحت النخل الفارع وتحت الصخور وتحت الوديان وتحت الأمواج وتحت البحر حتى تظهر في بئر أخرى في جزيرة «صراط الخور». هُنا الأسطورة تتحول، فبدلاً من كونها أسطورة حفر بئر، وجود بئر، في عطش الصحراء العميم، إنها هنا تمشي وتعبر. الأسطورة هنا عبور تنقلب لتكون مخيال حبل سري بين البحر واليابسة.

هذا عن أمر البر، أما عن أمر البحر، فلنبدأ من التفسير المفترض لتسمية: خورفكان. بترجمة حرفية لهذا التفسير: خورفكان، خور ذا فكين، فإذا ما كان لهذا الخور ذراعان صخريان يتقدمان في البحر ويشبهان ذراع «القبقوب»[1]، فإن الذراع الأول قصير جداً يبدأ من جبال الشرق وحتى جزيرة «صراط الخور»، أما الذراع الثاني المفتوح لاستقبال أكبر كمية من مياه المحيط الهندي فيمتد من تلك الجزيرة وحتى رأس الجبل ذاك الذي يفصل الخور عن «الولية»[2].

وحسب شهادات لا تحصى من نواخذة وبحارة ومختصين في الملاحة، فإن سفن الجزيرة العربية والخليج حين تصل إلى خورفكان،

---

(1) سرطان البحر.

(2) قرية مجاورة لخورفكان، أمرت البلدية مؤخراً بتغيير اسمها إلى «اللؤلؤية».

تجد في هذه الميناء (الذي كان في وقت من الأوقات أحد ثلاثة أو أربعة موانئ «طبيعية» مهمة في المنطقة) المكان الذي بالإمكان أن يستريح فيه «محارب» البحر. من هنا لا أفهم كيف بإمكان مثل هؤلاء أن يُطلقوا على مثل هذا المكان: «الخور ذو الفكين». فـ«الفك» مفردة مشحونة بدلالات الالتهام والعض والهضم. من هنا فأنا أميل إلى الاعتقاد بان «فكّان» من أسماء الأماكن القديمة جداً في ميراث الجزيرة والخليج اللغوي التاريخي والمتنوع، كما أعتقد بأن تلك الفتحتين (هل نسمي خورفكان انطلاقاً من هنا: «خورفتحتين»)، أو وللاحتفاظ بالخطأ اللغوي: «خورفتحتان») كانت اليسرى منهم للسفن التي لم يمر عليها ساعات عن الخروج من مضيق هرمز وهاهي الآن تدخل إلى خور هادئ قاصدة ذلك الساحل الصغير المقابل لجزيرة «الصراط» كي تُلقي بالتالي على ذلك الرمل متاعبها، وينزل بحارتها على الأرض. ينزلون إلى ذلك الساحل. الساحل يُسمَّى «المخيبي» (أزيل لاحقاً، وبالتالي سيموت الاسم)، وأستطيع هنا أن أقول أن السفن ترتاح في الاسم لربما أكثر مما ترتاح على رمل الساحل المطمئن. فال «مخيبي» من «المخبأ»، ولا تحتاج سفينة وبعد ان ذاقت مزاج الرياح على البحر إلا إلى سماع مثل هذا الاسم.

أكثر من هذه السفن حاجة إلى سماع مثل هذا الاسم والوقوف على رمل ذلك الساحل، السفن الأكثر إنهاكاً والتي قطعت الشهور وهي في غياهب البحر قادمة من أماكن قصية من شبه الجزيرة الهندية

أو أعالي أفريقيا. ولا أظن أن سفناً متعبة كهذه ستدور من حول جبل جزيرة «الصراط»، ومن ثم ستدخل في الفتحة الكبيرة. لا أظن طبعاً أن لديها وقتاً لهذا، إذ مجرد ما أن تسمع اسم «المخيبي» وترى ذلك الرّمل حتى تغرق، ولكنها هذه المرّة ستغرق في بهجة الوصول إلى بر.

باب البحر

-1-

يطلُّ الباب الثالث على الحبيب البحر. حبيب أبي ومعشوقه. ومن كثرة ذهابنا إلى الشاطئ، أو إلى البحر وإيابنا منه، يكاد ذلك الباب أن يكون مفتوحاً على الدوام.

كان أبي، قرّبه الله من بحر الجنة، من القلة في «المديفي» الذين يمارسون الصيد بعيداً عن الشاطئ. ولذلك كان لدينا قارب نزوره دوماً. وأظن أن ساحل المديفي الطويل والمفتوح لم يكن ساحلاً آمناً، لهذا كان ذلك القارب - كما أفترض - صغيراً يسهل ادخاله واخراجه كل مرة من البحر. ولربما لهذا امتلك أبي بعد ذلك قارباً أكبر يُرسيه هناك في «الشرق»، عند الميناء.

لسوء الحظ صاحب ذلك دخول السيارات بكثرة إلى المنطقة. حقاً ساعد ذلك أبي على الوصول إلى قاربه بسرعة وسهولة، لكن هذا البحّار الذي شارك في الغوص ورحلات الأسفار الصعبة والمهلكة، لم ينصب له القدر فخه السخيف إلا في هذه الآلة اللعينة التي مزقته إرباً، أو هكذا حدث.

البحر: أبي، بالمعنى الحرفي للكلمة.

فأبي والبحر مفردتان مترابطتان منذ صغري، وتعرفت إلى البحر وخشيته وأحببته من خلال أبي، بل من خلاله يبدو مصيري مندغماً كلياً بالمشهد البحري. حتى أنني أرى خطي وأنا أكتب الآن على هذه الورقة نملاً يمشي على موجة تعيش في البحر.

-2-

خلال سنوات تلت كنت وصديقي الفنان محمد أحمد إبراهيم ندمن الجلوس في مقهى مطل على البحر في خورفكان كي نحتسي الضجر.

ولطالما تساءلنا عن ذلك الجدار اللامرئي الذي نلمسه لمس الروح بين البحر بما يعنيه من دعة وانفتاح وخلاسية وتعرٍ أمام الانغلاق والتحجر والحرص والنظرة الضيقة التي ينطوي عليها تفكير أناس منطقتنا، وأنه إذا لم يكن بمستطاع كل هذا الماء تغييرهم فمن يستطيع يا ترى؟

وبالرغم من ذلك فإن البحر غيَّر الكثير في هذه المنطقة، فأغلب ما كان يأكل ويلبس السكان جاء من خلال البحر، كما جاءت الكتب.

جاء أبي عن طريق البحر.

ثم جاء ومعه كتب.

إذ من ضمن اثنين أو ثلاثة على الأكثر في حي المديفي، كان أبي يقرأ جيداً، ويخطُّ قليلاً. قليلاً جداً.

ثم أنه، وفي البيت القديم، كان يأتي بالروزنامة الجيب، ويعلقها على الجدار مدوِّناً عليها بعض التواريخ: يوم وشهر وسنة وفاة عبدالناصر أو أم كلثوم.. أو أشياء من هذا القبيل.

لكنه جاء من أسفاره البحرية بكتب من نوع: سيرة عنترة، فتوح

الشام للواقدي، رياض الصالحين، تنبيه الغافلين، الرحمة في الطب والحكمة.. وغيرها الكثير. وكان يقرأ كثيراً ويتهجد. وكان كثيراً ما يرفع صوته منشداً الأدعية وحده. هذا عدا عن تلاوته القرآن.

أحدٌ خارج البيت لم يكن يعرف عنه ذلك قطٌّ. لهذا يُخيل إليّ بأن تعبده هذا وتهجده كان تديّناً بحرياً. لكن إذا ما سألني أحد ماذا أقصد بالتدين البحري؟ فإنني سأقول ببساطة: لا أعرف.

إلى ذلك كان أبي من هواة حفلات «المالد». ولحسن حظه سكن معنا في المديفي عدد ممن يُسمّون بعرب فارس، أولئك الذين نزحوا من الشاطئ الجنوبي للخليج. وكانوا في المناسبات الدينية أو بعض المناسبات الاجتماعية يقيمون مثل هذه الحفلات. إنه وهو الذي تجتذبه المشاركة في «الموالد» (يلمع شيء ما في داخله، وكما يتلامع ضوء القمر على الأمواج المتدحرجة في بحر المد، يظهر ذلك في عيونه) كان يهرع إليها عندما تقام، وفي مرات استدرج المتولهين بـ«المالد» إلى البيت وأقاموا حفلة أو حفلتين تحت «الشريشة».

لهذا بالطبع كان أبي يحتفظ بديوان عبد الرحيم البرعي[1] الشاعر الرئيس لأناشيد هذه الحفلات (يُزاحمه أحياناً المتنبي وابن الفارض).

---

(1) عبدالرحيم البرعي: فقيه وشاعر من قرية يمنية تدعى برع، وكان مدرساً ومفتياً محبوباً واشتهر بمدائحه النبوية. والبرعي المتوفى عام 308هجرية (في القرن الخامس عشر الميلادي) يعتمد فن «المالد» (راجع عن «المالد» ص55 من هذا الكتاب) في الخليج، ويعكس بذلك جانباً من الصلة الوثيقة بين الأداءات الفنية والثقافية في اليمن والخليج، خاصة في القرون الميلادية الخمس الأخيرة.

قرأت ببطء في ديوان البرعي وسمعت ورأيت أبي وغيره يتمايلون على وقع هذه الأناشيد، مطلقين بين الفقرات صرخات لا تصدر إلا عن روح مشقوقة.

وكان من الغريب – على الأقل بالنسبة إلي في تلك المرحلة – أن تجمع تلك الأناشيد بين تقديس الإله ومدح النبي، وبين تلك الآهة المأساوية المحاذية للموت، وبين التعلق بالفتّان:

«بأبي الشموس الجانحات غواربا

اللابسات من الحرير جلاببا

المنهبات قلوبنا وعقولنا

وجناتهن الناهبات الناهبا

الناعمات القاتلات المحييا

ت، المُبديات من الدلال غرائبا»

شخص وحيد ومنفصل مثلي أحس – رغم صغره – بالمسرحة، بجوهر المسرحة، في هذا الطقس (أو المتحوِّل عن طقس). ولأن المسرحة معدية حاولت وأنا أقرأ ديوان البرعي المحفوظ في البيت، أن أتلوه..

أن أتلوه وأتدرب على «مسرحته» بيني وبين نفسي. وسرعان ما اكتشفت بأن لتدريبٍ نتائج ظاهرة لا بأس بها. إذ كثيراً ما كانت تجتمع النسوة عند أمي على سطح «المنامة». عند «قهوة الضحى» كما عند «قهوة العصر».

دور «قهوة الضحى» مسح شامل لأحوال الحي وساكنيه. اغتياب يومي ومنظم وموئثّ لسلّم القيم السائد، أما «قهوة العصر» فيلحقها غروب، وحين تغيب الشمس في الخارج تشرق شمس أخرى، هي شمس الليل، شمس دواخل الإنسان.

الغروب المخيف والمرعب واليومي للشمس عن الأرض هو محراث أزلي، على ما يبدو، لقلوب البشر. إذ حين ينغرز بالتربة الجلدية التي تفصل كل شخص عن الآخر يُقلب جذور الأنفاس، فتنطلق الخصوصيات والأناشيد والحكايات، وتندلع حرائق الضحكات المتواصلة كما الجفون التي من الممكن أن تهشم الصخور من حركة ليظهر من بين شقوقها الماء المكبوت.

وبعد تدربي على مسرحة كتلك، ظهرت في إحدى المرّات على خشبة مسرح «المنامة» وبين جمهور من النسوة المُجتمعات عند أمي.

النسوة يبكين بمرارة. فاجأني ذلك، لكن بعد ذلك كنت أتلذذ بذلك البكاء المنهمر أثناء انشادي وكأنه نوع من التشجيع والإعجاب، حتى أنني أذكر أمسية من تلك الأماسي التي تساقط فيها الدمع مدراراً، وأنا أنشد:

«ليس الغريب غريب الشام واليمن

إن الغريب غريب اللحد والكفن

لا تنهرن غريب طال غربته

فالدهر ينهره بالذل والمحن»

على «المنامة» كان أزيز الرصاص يخترق صوتي العالي. الرصاص كان حقيقياً. فتلك الأيام كانت إما الأيام الأولى التي تلت إعلان دولة الإمارات، أو قبلها بأسابيع مما أحدث خلافاً قبلياً، أو فلنقل «عائلياً»، بين خورفكان وما جاورها من قرى.

وكانت تسمعُ في الليل أصوات بعض الطلقات من هنا أو هناك، بل إن إحداها مرقت بوضوح في السماء الجالس تحتها على «الشريشة» التي كانت تجلس تحتها «المنامة». وبالرغم من ان هذه الحرب، حرب صغيرة ومضحكة ومن النوع الذي يحدث دائماً في مثل هذه الوديان. بالرغم من ذلك لاتزال مغرية فكرة أنني كنت أنشد قصائد عبدالرحيم البرعي بصوت عالٍ، «تحت القصف»، بينما النسوة يبكين.

–3–

حياتي وأمي في ذلك البيت الواسع كانت تملؤها الكثير من المخاوف في ظل غياب أبي المستمر في البحر (هذا الغياب الذي قد يكون أحد تجليات كوني، كما أدّعي، ابن مصادفة بحرية).

ليس بإمكان أحد اليوم إدراك وطأة غياب البحّار. كانت كل نقطة في أفق البحر تكبر في عيوني سفينة قد تكون عائدة بأبي الذي

لم يحن موعد عودته بعد. مشهد مراقبة بزوغ السفن من المجهول هي من الجذر التصويري نفسه الذي للطائر المترائي للبحّار من سفينته فيدرك بأنه قد اقترب من البر. كما أن هذا المشهد كان بالنسبة لي من أكثر الصور جذرية من بين تلك التي عشتها مع البحر. استاذ المسرح الحي.

وقبل أن أتمعن في بعض صور هذا الأستاذ. أود العودة إلى جانب أو أكثر من تجليات جلستنا أنا وصاحبي محمد أحمد إبراهيم على ذلك المقهى المحاذي لشاطئ طفولتي.

الفراشة الزرقاء والتي أجنحتها من دُخان وأعصاب، تحوم على رؤوسنا، تأكل وتشرب من رحيق الثمار الموهومة في أرواحنا، تغرق وتطلع كالنوارس المثقوبة بالدم من أمواج أجسادنا.

وذات يوم ادّعى محمد إبراهيم بأنه فقد نظارته في البحر، وأنه بعد ذلك كان يشاهد ما تراه النظارة الغارقة، وبنوع من التراسل والتخاطر أو «ما بعد الخارج»، بين روحه الجالسة على مقعد في مقهى وتلك النظارة المتنقلة حسب المد والجزر تحت سطح البحر.

فمثلاً إذا ما تعثرت تلك النظارة السابحة بعشبة بحرية، فإنه كان بإمكان رؤية غصينات ووريقات العشبة التي ذوّبها غرام البحر تتمايل من عيون محمد.

واحمَّر وجه محمد يوماً (خُيّل لي وقتها بأن النظارة قد فعلت فعلتها

حقاً)، وجهه المستدير حول عينيه الشاخصتين دوماً، وحين نظرنا إلى البحر وجدناه في حالة حيض.

تعززت عندي وقتها فكرة أن البحر أنثى (ولربما بدا لي حينها بأن محاق القمر سُحاق)، ففي أسابيع معينة من السنة تمتلئ أمواج ذلك الساحل بلون لا يمكن تشبيهه إلا بـ «الدم الفاسد»، أو ما يسمى كذلك.

يتضح ذلك في النهار، أما في الليل فإن الشاطئ يحتشد بيراعات فوسفورية تجعلها حركة الأمواج متداخلة ومتراقصة كأنما في الأمر، أو أن الأمر كله، حفلة ضوئية أو عربدة كونية.

نجوم تنزلق من اكتاف الأمواج، وسماء عظيمة، مظلمة ومتسعة، سرعان ما تنكسر على الرخام الوهمي للرمل، وعندما يسحب البحر مياه الأنفاس إلى صدره كي يشهق موجة، لا تكاد أصابعك لمس تلك الجمرات الفوسفورية حتى تنطفئ. لا تنطفئ الجمرات فحسب، وإنما أصابعك أيضاً.

–4–

لا يستقر البشر في غياهب البحار. يستقرون، أو يتوهمون الاستقرار، على أرض ما.

من هنا بإمكاني القول إنه لا توجد ثقافة خاصة بالبحر. حتى أن البحر يبدو من هذه الناحية ثقافة ثانية، أخرى، مرآة، متخيلة ومحلومة،

و«مودَّنة»[1]... وتلك عظمتها.

في أحد الأيام تصفحت إحدى الخرائط المرسومة لمغاصات اللؤلؤ في الخليج فدهشت من ذلك التقارب بين أسماء تلك المغاصات وأسماء برية كأسماء آبار أو نخل أو ظواهر صحراوية.

إن البحارة يحملون معهم ثقافاتهم كي يزرعوها في أمداء البحر، وينقل البحر تلك الثقافات بين ضفاف وسواحل وجزر، لا أول لها ولا آخر. مع كثير من الملح، وموجة من أمواج لا حصر لها، ونورس يرتجف وحيداً على صارٍ ضائع في ثلج الظلمات. وقد يُلقي البحر على هذا الساحل أو ذاك: تفاحة الجنون.

وأصدِّق ما سمعته ذات يوم بأن أحد الصيادين في قرية من قرى الساحل الشرقي قد اصطاد سمكة، لكن وبدلاً من أن يشويها أو يبيعها ككل «السمَّاكة» حين يعودون إلى البر، حفر لها قبراً بشاهدين، ودفنها وصلى عليها.

لاحقاً عرفت بأن في قرية هذا «السمَّاك» بالذات تلقى حكاية «شنق بن عنق»[2] أرواحاً جائعة للحكاية.

الخرافات تجد توابل خاصة في بساتين البحر، هذا إذا لم يكن البحر

---

(1) من «مودَّن»: منقع في الماء، والمفردة فصيحة.

(2) «شنق بن عنق»: يُقال انه من العماليق، أو من الفلسطينيين القدامي يحمل السفن على أصابع يده ويشوي الحيتان على موقد الشمس. والحكايات تروى عنه في عموم الشام والجزيرة العربية، بما فيها عمان والإمارات، خاصة في البلدات الواقعة على ساحل البحر.

بحد ذاته خرافة، أو استعارة كبرى.

وبظني فإن الإنسان يتعرف إلى الأمواج في الداخل منه حتى قبل أن يصادف أية موجة.

الأمواج شكل من أشكال النزوع الإنساني قبل أن تكون على فم البحر، لهذا ربما حين يقف أي واحد منا على شاطئ البحر يظن بأن موجة من تلك الأمواج، أو الأمواج جميعاً، موجته هو بالذات، وأنها في ذروة لحظات الصفاء أو الشقاء لا تخاطب أحداً إلا هو شخصياً.

لهذا ليس بإمكان أحدنا تذكر متى تعرف فعلاً على موجته، أمواجه الأولى، إذ يبدو الأمر شبيهاً بسؤاله عن متى تعرف على أول موجة أو حركة من حركات روحه.

وبقدر ما يكون لتلك الحركة طعم النزوع، فإن الدهشة بالأساس من تكوينها.

–5–

في الموجة اندهاش.

وكان مصنع الدهشة على مقربة من باب بيتنا، إذ كان ما بين ذلك البيت والشاطئ أرضاً حصوية تليها كثبان رملية كدّسها المد، ثم بعد ذلك رمل رطب، ومن ثم ذلك الكائن الغامض والرهيب والرقيق المسمى في اللغة العربية: بحراً.

وذلك الطريق من باب بيتنا إلى البحر مسار روحي، بالنسبة لي، وهو نقطة من مثلث يحدِّد جغرافياً وتاريخياً الموقع الوجودي لتلك المنطقة.

فعند صحار تكون «جبال الحجر» على مبعدة عشرات الكيلومترات عن شاطئ البحر، وتقترب منه أكثر عند كلبا والفجيرة، لكن وقبل أن تصل إلى خورفكان يكون الجبل قد أدلى بلسانه في البحر، وكأنه وهو القادم من اطلاع مسهب على الصحراء يريد أن يقول شيئاً، وليس قوله ذاك إلا مزقاً.

إنه يتقدم كقطيع من الحيوانات الصخرية الجرداء الضخمة ليغسل أطرافه في البحر، وبينما يمارس ذلك الاستحمام الأبدي تنفلت منه جبال صغيرة تسبح «بحرية» (لاحظ هذه المفردة) بعيداً عنه كـ«صراط الخور»، أو يتجشأ أحياناً فتظهر صخور خفيفة، بالقرب منه، في البحر.

كل ذلك كأن «جبال الحجر» محتشمة، إلى أن تصل إلى «الدردور»، كما يسميه الجغرافيون العرب القدامى. عندها تكشف تلك الجبال عن صخورها النائمة في صخورها، وبكل جلال، وتسبح في البحر. تماماً كالجميلة التي أثقلتها الملابس الريفية الكثيرة والخشنة، وعندما رأت البحر تخلصت من كل تلك الهموم وتعرّت. أو كالجميلة العطشى التي قطعت الربع الخالي، وعندما وصلت إلى السواحل فإن الأوان، إن لم يكن قد فات، فإنه آن كي

تشرب.

لم أزر «الدردور» أو مضيق هرمز، لكن كل البحارة في الخليج يعرفونه جيداً، إذ «الدردور» من ثقوب البحر السوداء. وفي ذلك الثقب البحري كانت تسبح الجنية والجزيرة «سلامة»[1] مع بناتها أو أخواتها، وتغتصب السفن.

وعلى الأرجح فإن هذا المضيق لم يكن مفردة في معجم الأساطير البحرية في الخليج، أو «دردوراً» في الماضي فحسب، وإنما هو «دردور» للمستقبل كذلك.

—6—

من أكثر الظواهر إدهاشاً على الساحل الشرقي من هذا المثلث هي ظاهرة شروق الشمس من البحر وغروبها خلف الجبال، فالشمس تظهر في الصباح الباكر كنقطة عند خط الأفق، تكبر حتى الظهيرة في مرآة البحر المتموجة، وتبكر في الغروب خلف الجبال فتسحب رداء ظلالها ببطء عن نواحي تلك المرآة.

وتتأخر رؤية الهلال وهو يخرج من خلف الجبال، بينما تتمتع صفحة البحر شهرياً بالليالي المقمرة.

وبالنسبة لي فإن هذا الساحل بقدر ما ساهم في ولادتي، فإن أمواجه تمتعت بغالبية سنين طفولتي وصباي.

---

(1) «سلامة» تعني في اللهجة أيضاً: الحياة.

أعرف بأن المرء، وإذا ما كان يملك مخزوناً من الشرود أو أحلام اليقظة، فإن ذلك يعود بدءاً إلى البيت الذي استيقظ فيه وإلى بيت الطفولة الذي تلقاه.

وبالنظر إلى «غرفة طفولتي» الوحيدة، فإن الحوش الواسع لبيتنا، وتلك «الشريشة» التي تتوسط ذلك الحوش، وتوزع الظلال كما يوزع المايسترو الأنغام والألحان، يشكل المسرح الحقيقي لتخيلاتي، لكنه في المقابل، لا يمثل حدودها. ولا نطاق عزلتي الواسعة.

فلقد كان شاطئ البحر منارة متوهمة لتلك العزلة ومسرحاً لأحلام اليقظة السارحة تحت ظل «الشريشة». رغم أن ما يُسمى بالتأمل لم يكن وارداً في حياة الماضي تلك، وإطلاقاً. فالصبي منّا لم تكن هنالك غاية من إنجابه، أو يُقال ذلك له وبكل وضوح ممكن، إلا لكي يعمل. أو كما يقال: «.. كي يساعد أسرته على تحمل قسوة الحياة».

ولم يكن يذهب ذلك الصبي أو أقرانه إلى البحر أو الجبل كي يستمتع في «أحضان الطبيعة»، هذه الاستعارة السمجة التي ترددها الصحافة هذه الأيام، إن المتعة، أو الوقت المجاني، لا معنى له في تفكير ذلك المجتمع الذي عشته.

على ابن تلك «القبائل الشفاهية» أن يعمل، ومن العمل سيتعلم ويستمتع. فالحرفة التي تتوارثها عن أهلك، سواء أكانت حرفة صيد العسل أم حرفة صيد السمك، هي مفتاحك لتعلم مفردات الطبيعة والوجود معاً. إن صلتك وبالتالي قدرك وشأنك يتحددان بالمقدار

الذي تجيد فيه شيئاً ما. أما حين تجيده وتعرف سره أو أسراره فإنك تكون «الأستاذ» أو «النوخذا».

والآن، في مجتمعات الخليج، وبعد أن قُضي على ذلك المجتمع التقليدي (وبالذات قُضي على روحه) نلاحظ، وبألم كبير، أن الجيل الجديد منفصل تماماً عن طبيعته.

سيتوارد إلى ذهن القارئ هنا أنه منفصل عن نفسه، وهذا في كثير من الجوانب صحيح. إذ بالرغم من الحديث الدوغمائي عن البيئة الآن، فإن العلاقة مع الطبيعة كانت تعني «معرفتي الخاصة ببيئتي». وإن هذه العلاقة لم تكن ولم تتكون إلا بالعمل.

إن ما يجعل هذا الجيل الجديد منفصلاً ومنفصماً عن طبيعته (أي ما يجعل الحديث عن البيئة دوغما) أنه استهلاكي. أي لا يعمل. وأن عمله هذا، وتأسيسه ككائن «للوظيفة»، لا يجعل منه إنساناً.

-7-

مائدة تلك الأيام كانت فقيرة للغاية (تمراً وسمكاً) وكان لابد من توافر القمح للخبز وتوافر الأرز والسمن، ولتوافر هذه المواد بالذات يبيع البحارة والمزارعون أعمارهم لمن لا يرحم من البشر، ولما لا يكف عن التقلب كطبيعة بلادهم الجافة، وإذا ما كانت هنالك نخلة وسمكة وغنمة، فإن الحياة تبدو لأولئك البسطاء أكثر رغداً. بل إن تمتعهم بطيبات هذا الفقر أقرب ما يكون إلى الزهد الجماعي.

إن مطبخ هذه المنطقة يعتمد، أو كان، على النخلة والبحر، وتتنوع طرق تجفيف ثمر النخل وتخزينه، كما تتعدد طرق تجفيف أثمار البحر وتخزينها. وما مائدة تلك الأيام إلا تقديم ذلك الطازج أو المُخزن، النيئ أو المطبوخ، أو خلطتهما على تلك المائدة.

–8–

ككل الصبيان، أو أنا بالذات، كان على طفولتي أن تعمل. وأظن أن من أبسط ما كان يمكن أن يفعل طفل مثلي في ذلك الوقت، النمو على حبال «الضغوى»[1].

أشرت من قبل إلى أن الشاطئ الحقيقي لبحر خورفكان يبدأ من حينا «المديفي»، لهذا فإن الصيادين على طريقة أو «فن الضغوى» يعتبرون ذلك الساحل المفضل لممارسة ذلك الفن.

هنا عليّ ذكر مسجد الحي ومؤذنه وإمامه خلفان مفتاح، فمسجد «المديفي» القديم كان بيت الله البسيط في الحي.

كان غرفة مستطيلة للصلاة، ومحراباً مع حوش صغير. وقرب المنارة «يتمسح»[2] للصلاة، وأمام جدار المغسل، في مواجهة البحر، زرع الأعمى خلفان حناءة في روحي.

(1) «الضغوى»: طريقة صيد حيث يتم الإحاطة بالأسماك التي تصل إلى السواحل بالشباك (الألياخ) وبشكل نصف دائري، بينما يجذب الصيادون هذه الشباك من جهتين وهم يهزجون.

(2) «يتمسح»: يتوظأ للصلاة.

خلفان الإمام والمؤذن كان أبسط من المسجد، فلقد جاء من قرية جبلية تدعى «وادي شي» مع أخيه، وسكن في المديفي.

قضى حليس الأخ حياته وهو يوزع ما يحصل عليه من سمك على أهالي الحي، بينما لا يكاد المؤذن الأعمى يحصل على أحد يقوده من عصاه إلى المسجد. كلاهما غير متزوج، ولا نعرف من أين تعلّم خلفان الدين، ولن نعرف لم وهب هذان الأخوان حياتهما لـله، أو «للاشيء» لا فرق.

وعلى ما يبدو فإنه بقدر ما كانت تلك الحياة توطد أنظمة القرابة من زواج وسلف وخلف وغيرها، فإنها تستوعب كذلك الأرواح المخترقة لهذه الأنظمة، فتلك الأرواح، في الأخير، الوجه الآخر للسجادة، أي انها الصورة المقلوبة لنفس النسيج.

خلفان الذي لم يبق من جذوره الجبلية إلا زرع حناءة بالقرب من المنارة، كان يجلس مع أغلب رجال الحي على دكة المسجد التي من سبع درجات أو ست، بمقابلة الشاطئ.

على تلك الدكة كانت تتوالد الحكايات، فلكل سؤال جواب على تلك الدكة، وجعبة الأجوبة كانت مليئة بالحكايات. وفي كل جواب حكاية أعمق وأهم من كل جواب.

أقسم البَّناء (الأستاد) سيف مثلاً، أنه رأى جاره المتوفي طائراً في السماء. هكذا سابحاً كسمكة في بحر السماء.

ويزيد بأن أهل ذلك المتوفي ذهبوا كغير عادتهم إلى قبره

فوجدوه محفوراً بلا جثة. هذا ما حدث، وعلى جميع مستمعي الدكة تصديق سيف.

خلفان المؤذن يؤكد في هذه الحالة أن الجن هم سكان الهواء، وأن ما يتحدث عنه سيف وارد. بل وارد جداً.

ويدلـي آخر بدلوه فيقول إن المتوفي كان مسحوراً في الأساس، وإن وفاته كانت تمثيلية كي يكون بمستطاع السحرة أخذه من أهله، لهذا ينبغي على أولاده، ومن منطلق ما سبق من حيثيات، البحث عنه.

بعـد أيـام، على تلك الدكة، نعرف أن أولاد المتوفي ذهبوا فعلاً إلى شيخ معتبر في الباطنة، أو قرية في الجبال كي يعرفوا مصير والدهم. خاصة أن الأم قد لاحظت أن طيفاً يزورهم، لذلك كانت تعد عشاء جيداً كل ليلة وتتركه في الايوان (الليوان) أو قربه، وهي متأكدة من إنه سيأتي حيوان لم تره من قبل، فيأكل ذلك العشاء عن آخره. بل إنها لا تستطيع إلا الإحساس بالغيرة إذا ما اصطحب ذلك الحيوان أنثى من صنفه، أو حتى من صنف آخر، لتناول ذلك العشاء.

بعد ذلك يُقال إن أبناء ذلك المتوفي تيقنوا أن والدهم موجود في أحد كهوف أو مغارات السحرة في الجبال.

وإذا ما جاهر أحد بسؤال:

– لم لا يذهبون لإحضاره؟

فالجواب الجاهز لديهم أن شيخاً ما، من شيوخ الدين القلة وقتها، وعدهم بإعداد وصفة سرية لاقتحام ذلك الكهف، وتخليص الميت / الحي من السحر.

الجميل في مثل هذه الحكايات أن الميت يبقى حياً ومنتظراً لعدد من الشهور وحين يكف البحث عنه، لا ينقطع هو عن زيارة بيته والاطمئنان على أهله، رغم موته، حتى لو تم ذلك على ظهور القطط.

ولم تكن حكايات الموتى المسحورين هي وحدها المُثارة على تلك الدكة، فشؤون الحياة اليومية تجري مناقشتها هنالك بعد صلاة كل عصر حيث يجلس أغلب رجال الحي وعيونهم شاخصة نحو المستحيل الأزرق.

—9—

في عصريات ذلك الشاطئ تتهادى قوارب «الضغوى» وتُسمى «العاملة»، وهي قوارب طويلة تتسع لما يزيد على عشرة مجدفين هم، على الأقل، من تحتاج إليهم هذه الطريقة في الصيد.

يتقدم هؤلاء أحد الصيادين. ومن مكان مرتفع (قارب صيد خارج الخدمة، صخرة، برميل، أي شيء) يرصد حركة أسراب من أسماك صغيرة لا يزيد طول الواحدة منها عن الإنش، وتُسمى وهي ماتزال طازجة بـ«البَّرية». و«برية» اسم دال ومناسب، إذ غالباً ما تتبع هذه

الأسماك الشاطئ أو البر، ولهذا فهي «برية» فعلاً.

إن ذلك البحَّار السابر، المتقدم الفريق، لا يرصد فقط تواجد ذلك النوع من الأسماك من وقفته تلك على مرتفع من الشاطئ، وإنما بمستطاعه كذلك تقدير كميتها، وهل هذه الكمية تستحق جهد الصيد أم لا. وعندما يحزم أمره ويقرر يسحب «غترته» ويلوح بها لزملائه في القارب.

كما أن تلك التلويحة تكون قد شوهدت من قبل الرجال الجالسين على دكة المسجد.

هكذا يترك من يريد من رجال الحي دعة الحديث ويذهب للمشاركة في الصيد.

وتعتمد «الصغوى» على أن يمسك فريق من الرجال (أكثر من أربعة أو خمسة) طرفاً من الشباك، بينما يرمي الفريق الآخر (الذي على القارب) بقية الشباك بشكل نصف دائري في البحر، ومن ثم ينزل هذا الفريق ليكون الطرف المقابل. ومتى بدأ القارب في رمي الشباك تبدأ حفلة «الصغوى»، فالقارب يُسرع في تطويق الأسماك، وما أن يشرع الفريقان في جر الشباك حتى تتعالى الأهازيج والصيحات. وكلما أوشك الطرفان على الالتقاء ضاقت الشباك على الأمواج والأسماك، فتنتقل عدوى الحفل إلى البحر حيث يتقافز القادر من السمك من الشباك، وتتعالى الصرخات المجروحة لطيور البحر المتجمعة هي الأخرى للمشاركة. وكثيراً ما يكون الصيد وفيراً، خاصة من أسماك

«البرية» و«العومة»[1] وغيرها، فالشباك ضيقة العيون تجمع كل ما تُصادفه في طريقها، لهذا فإن كل صبي من صبيان تلك الحقبة كان يعرف أسماء عجيبة وغريبة لأسماك متنوعة الأشكال. منها ما هو على شكل صندوق، وأخرى على شكل سيوف أو سكاكين، وغيرها ممغنطة ومشحونة بكهرباء غير الكهرباء. هذا غير «القرنشوعة» وهي تسمية تُطلق على ما لا حصر له من أسماك ملونة وصغيرة لم يتفرغ ذلك المعجم البحري لتسمية كل منها على حدة.

بعد أن يتكدس المصيد على الشاطئ يتم فرز الكمية من أسماك صالحة للأكل وأخرى غير صالحة إلى النوع المقصود صيده، وهو هنا «البرية» أو «العومة»، والتي تقسم هي الأخرى إلى المأكول طازجاً فتوزع على المشاركين في الصيد أو تباع في حينها، وتلك التي ستترك للتجفيف. حين تُجفف «البرية» تُسمى «قاشعاً» (تنطق: «جاشع»)، وهي فصيحة. فالقشع اليابس والمنقبض كما جاء في لسان العرب وغالباً ما كان القاشع يُجفف في تلك الأرض الحصوية التي تفصل الشاطئ عن البيوت، وإن يكن على جانب بعيد نسبياً، حتى لا تهب على الحي تلك الرائحة العفنة لهذا النوع من التجفيف.

وهي رائحة حدت بالبلديات في وقتنا الحاضر إلى منع الصيادين من التجفيف في القرى لدواعي تنشيط السياحة.

---

(1) ««البرية»: يقال لها بالفصحى الأنشوجة، أو سمكة الفضة. وهي في اللهجة «برية» عندما تكون طازجة و«قاشعاً» عندما تجفف و«سحناه» عندما تسحن، ويقال «للبرية عومة» في العديد من سواحل المنطقة، أما «العومة» فهي: السردين.

وعدا المشاركة في تجفيفها ومن ثم جمعها ووضعها في «خيش»[1]، فإن «البرية» من الأسماك المستخدمة في أغراض شتى، فهي للأكل (تؤكل طازجة وكذلك بعد أن تجفف وتطحن لتسمى سحناه – من السحن – لا تؤكل مع الأرز والليمون والبصل) وسماد، حيث تُسمد بها الكثير من المزروعات.

وكان الساحل الشرقي معروفاً حتى وقت قريب بصيد كميات كبيرة سواء من «البرية» أو «العومة»، يستهلك بعضها محلياً ويصدر الفائض من القاشع والمقشوع إلى الخارج.

–10–

وقت طويل من طفولتنا كنا نقضيه على الشاطئ، وإذا لم يكن هنالك صيد، فهناك انتظارنا نحن الأطفال للصيد.

لن أتحدث عن الركض خلف الأمواج كأنها كلب أليف هارب، ولا عن الزحف على الرُكَب لبناء بيوت وطرقات ونحت جبال وسماوات ورسم فتيات وحدائق تأتي أمواج أخرى فتمسحها.. ولا عن ذلك الاصغاء لصوت الأمواج، ذلك الصوت العجيب المتنوع المتداخل المتواشج المتراقص بأعماقنا.

كل شيء على الشاطئ مثيراً للانتباه والخيال. وكل يوم، في كل لحظة، هناك ما يستفز العين أو الأذن. سابحاً في البحر أو محمولاً على

(1) «خيش»: مفردها «خيشة»، وهي أكياس مصنوعة من الجوت.

الأمواج أو مطروحاً على الساحل.

وما تلفظه الأمواج على الشاطئ لا حصر لغرائبيته، لا أتحدث هنا عن القواقع المملوءة أو الفارغة، ولا عن الكائنات الكريستالية اللافقارية، متنوعة الأشكال والأحجام. قناديل وثريات من ماء، اخطبوطات صغيرة شفافة، خيوط من حرير تحرق الجسد بمجرد ملامسته.

لا أتحدث عن هذا فحسب، وإنما عن الألواح الطافية، الصغيرة والكبيرة، عن البصل العفن وغير المتعفن، عن البطيخ الذي شرب رحيقه البحر، وعن التفاح الملئ بالماء المالح كوجنة امرأة بدينة. عن علب غريبة وعجيبة لم يتذوقها أحد على هذا الشاطئ من العالم. عن صناديق مزخرفة وغير مزخرفة وأحذية وملابس ممزقة، أو أخرى تلهو فيها أسماك صغيرة لن يصطدها أحد. عن ملاعق وسكاكين وكؤوس، عن أسلحة ورمان كأن حبّاته من العيون الداخلية، من مقل العميان، عن جثث لطيور مدهشة وأسماك إذا ما كانت خرجت فإنما من المخيلة، وبقايا هياكل عظمية لحيتان بعرض الأبواب الكبيرة للبيوت، وعن وافد جديد لم نكن قد تعرفنا عليه بعد، ستفُرش به الطرق أو الشوارع بدلاً من «السكيك»، وكان اسمه: القار.

لهذا فإن التسكع على قارعة الأمواج متعة ما بعدها متعة، ثم ذلك الجَزْرْ الفسيح لشاطئ حيّنا، والذي أتاح لأقدامنا الصغيرة المشي على ما كان قبل ساعات عمقاً في البحر، فنرى الأشكال التي ترسمها

الأمواج وتمحوها، والقواقع التي تُدخلها وتُخرجها، وربما ندوس على سمكة متخفية في التراب فتتكهرب أحشاؤنا.

-11-

«مليون شنجوب على الساحل فسحة قدم»

سركون بولص[1]

الأكثر إغراءً في شاطئ صافٍ كهذا هو صيد الأسماك باليد، وبقدر ما في طريقة الصيد هذه من ضياع وقت ولا جدوى، بقدر ما كانت تستبد بشغاف أرواحنا كأطفال وتذيقنا طعم المستحيل.

مساحة الجَزْر كانت ملعباً لنا ولـ«الشانييب» (جمع «شنيوب» أو شنجوب) وهي سرطانات صفراء لا تؤكل (سمعت أنهم يعالجون بها، بعد غليها، مرضاً يسمى «البوصفار»، وعادة ما يصيب الأطفال)، وكان من عاداتها أنها تختفي في البحر أثناء المد، أما عند الجزْر فتخرج متظاهرة بكثرة، وكأنها تُصِّيف على الشاطئ.

في مصيفها هذا تحفر لها بيوتاً في الرمل تماماً كأنها آبارٌ صغيرة، وكأي عامل بناء دقيق ومجتهد تُكدس الرمل المستخرج من الحفرة بشكل أقرب إلى التل قرب باب بيتها، وبترتيب مدهش

(1) كتب الشاعر سركون بولص هذا السطر على ورقة بينما كنا في رحلة هو والشاعر محمد الحارثي وأنا إلى الشارقة.

حقاً.

لعبتنا تبدأ بالاستفراد بأحد «الشناييب». نُحاصره فيرفع أذرعته القارصة بما يشبه التهديد، وهو يرجع إلى الخلف بشكل مضحك ومبهج، وسرعان ما يجد مهرباً فيهرول مختبئاً في حفرته.

نمد أيادينا بتلهف وتوجس في الحفرة بالعمق الذي يمكن أن تصل إليه أيادينا فلا نجده. نلمس باطن رمل البحر الدافئ كبطن حمامة تقعد على بيضها، نمدُّ أيادينا في الماء، في الماء المدفون في رمل الشاطئ، في الماء المدفون في الماء، نمد أيادينا فلا نجد إلا الرمل والماء، إلا الماء والرمل، لا نجد «الشنيوب». فقد اختفي. أين اختفى؟ لقد ابتلعه رحم الأرض. وكأن الكون كله يسخر من نزقنا هذا، حين نلتفت وراءنا فنجد الشنيوب قد خرج بهدوء من حفرة خلفنا، وها هو يتجه بهدوء وشجاعة لكي يختفي في البحر.

عند عجزنا هذا، وشعورنا بذلك العجز، ينتابنا غضب عارم، وكما كانت تفعل الجيوش الغازية في هذه المنطقة بالآبار، كنا ندك بيوت «الشناييب» تلك، معتقدين بما يشبه الزهو أنه لا يمكنها الخروج ولا الدخول إلى ذلك القبر المائي بعد ذلك.

وغير «الشناييب» هناك النوارس التي كان يطيب لنا في الشتاءات صيدها بما يُسمى «المعاضي»، وكنا عادة ما نأتي بالنورس المصاد إلى البيت، فينظر إلى ذلك السجن بعيون تشبه الدموع، ويموت.

وإضافة إلى «ضغوى» النهار هناك «ضغوى» الليل. وأتذكر كيف

يبدأ الأمر على وجه التحديد، «فالعاملات» (إذا ما صح هذا الجمع لـ«العاملة»): قارب «الضغوى») التي تريد هذا النوع من الصيد تبدأ بالتجمع عن الغروب قرابة حينا.

هكذا تكون حينها في متناول رصدي، سواء كنت أطارد «شنيوباً» على «السيف»[1] أو جالساً استمع مع الآخرين لحكاية من خلفان مفتاح على دكة المسجد.

أبدأ في تتبع القارب وهو يمشي في البحر، بينما أحاذيه راكضاً على الشاطئ حتى نصل في كثير من الأحيان إلى المنطقة التي فيها الفندق الآن، وقد كانت مهجورة تماماً فيما سبق، عابرين بالتالي «جبل سيدة» أوجبل السيدة، الذي حاول على الدوام الاستحمام في البحر إلا أنه فشل. ولقد أنهت الحياة الحديثة تلك المحاولة تماماً.

–12–

الليل على شاطئ البحر في تلك المناطق البعيدة عن البيت يبعث على الرهبة والخوف. ومذ نتسلم حبل الشباك كنا نجلس في انتظار إكمال القارب لشبه دائرته مستوحشين ونرتجف في الشتاء من البرد. لكن الحفلة تبدأ بمجرد ما نسمع من ينادي بجر الشباك، تنطلق الأصوات والأهازيج، وتدب حياة أخرى على ذلك الشاطئ المهجور، في ذلك الظلام الدامس.

---

(1) «السيف»: الشاطئ، والمفردة فصيحة.

ومن عالم «ضغوى» الليل لن أنسى ما حييت صورتين أو مشهدين، أولهما عندما كنا نصيد سمك «البياح» (أو البوري كما يسمى في بعض البلدان العربية)، فهذه السمكة كما تذوقها الكثيرون، هي لمن لا يعرف سمكة قوية وقادرة من منطلق هذه القوة وحدها على الطيران.

هذا ما كان يحدث حين يضيق عليها خناق الشباك وتشعر أنها وقعت في الفخ، تتحرك بشدة ثم تبدأ بالقفز على طرفي شباك «الضغوى» قفزة سريعة عالية، لكن المشهد الفاتن يتحقق حينما تكون الليلة مقمرة فتنعكس الأضواء على قشورها البيضاء. شلال من الضوء وجلبة من نور هي ما تحدثه أرواح «البياح» الحرة في ذلك الليل الهانئ.

مشهد في منتهى الجمال ووحشية الأرواح وقوة الحياة. لكن الإحساس به كان عليه أن يبقى مكتوماً، فلو أبديته لأولئك الصيادين لأشبعوك ضرباً وهم يرونك تُمجد حرية يظنون أنهم أولى بامتلاكها من فردوس البحر.

مخاتلة كنت أتذوق هذا المشهد كلما تكرر. لكن المشهد الثاني الذي لن أنساه، لا يتكرر أبداً، بل ولا يُصدَّق، حتى أنا لا أصدقه، رغم أنه حدث ووقع وكان.

كنت غالباً أعود وحيداً من «ضغوى» الليل قاطعاً طريقاً مظلماً وموحشاً، كما غالباً ما أعود بحصيلة ثقيلة من الأسماك أحملها

بقفير على رأسي، بينما مياه البحر وصديد الخياشيم ينسكب عليّ، وأنا أمشي على رمال ذلك الشاطئ المتداعية، لهذا فإن أمي كانت وفي أغلب الليالي تخرج للقائي في منتصف الطريق.

وبينما كنت في أحد الأيام عائداً من «ضغوى» بصيد وفير، وخطواتي تتعثر على الشاطئ من حملٍ ثقيل، فإذا بي ألمح أمي قادمة من البعيد كعادتها، فأسرعت كي أصل إليها ولكنني كلما اقتربت تبينت واتضح لي أن تلك المرأة بدينة بينما أمي ضعيفة، وكلما اقتربت كان يشع من جسد تلك المرأة ضوء وكأنها تلبس ثوباً من ذهب، وكلما أقتربت كان قلبي يوشك على التقافز من صدري، تماماً كما وقف شعر روحي الآن، وكلما رويت هذه الحكاية..

وكلما اقتربت كنت أدرك أكثر فأكثر أن هذه المرأة ليس لها علاقة بي ولا بأمي ولا بالبشر ولا بعالمنا «المعروف»، لا من قريب ولا من بعيد.

وكلما اقتربت كانت المصيبة في ذلك الاقتراب.

ولا أدري من الذي ألهمني في ذلك الوقت: إله البحر أم إرادة الروح أم بصيرة الخوف بأن أنزل وأمشي بمحاذاة الأمواج.

توقفت تلك المرأة (هل هي امرأة؟) للحظة ثم استدارت ومشت خلفي، كنت أندفع إلى الأمام من الرعب فحسب، ولا أظنني كنت أثناء هرولتي أترك أثراً كي تمحوه الأمواج، لأن من كان يمشي ظلي، وأني كلما التفت كانت روحي تتقدمني ويبقى جسدي فريسة للحاق

بها، وكانت عيوني كلما التفت تسقط في جسدي ويقودني الطريق. وكان الطريق يبدو أطول من روحي التي تمشي بلا خطوات ولتتعثر في جدران الظلام ومنخفضات الخوف.

كلما التفت أراها تمشي خلفي بهدوء وروية وهمة معاً، وكنت لا أراني.

كنت موجة مذعورة قُطعت من سياق البحر وتتدحرج الآن بلا زبد ولا صفاء ولا ماء ولا ملح ولا سماء ولا موجة..

إلى الأمام.

لقد طالت واستطالت تلك اللحظة الرهيبة لكأن الرعب حفر تلك الدقائق القليلة وأبّدها. ولم تنجلِ إلا بالضوء الكهربائي الوحيد في حيّنا، والذي كانت تُلقيه منارة المسجد متهادياً رؤوفاً على الشاطئ.

حبل نجاتي كان من ضوء.

إذ ما أن عبرت الضوء والتفت حتى اختفت تلك الأعجوبة، تبخرت كما تتبخر مياه البحر واستقرت غمامة الرعب في جوفي ومن الخوف لم أقل شيئاً لأحد، لم أذكرها وأتذكرها حتى بيني وبين نفسي. وما أن عدت إلى البيت حتى ألقيت «المزماة»، أو ذلك القفير الكبير كيفما اتفق واستلقيت على الفراش ونمت لساعات وساعات طوال.

نوم لم يحدث في طفولتي كلها إلا مرتين، وكانت المرة الأخرى

عندما مات «فرّاش»[1] مدرستنا وكان يُدعى المسلماني، كان يحبني وأحبه جداً وعندما عرفت بموته عدت من المدرسة مباشرة إلى الفراش ونمت نوماً طويلاً لا حلم فيه ولا حركة ولا يقظة، نوماً كأنه قطعة من الموت، كأنه زيارة لغرفة الموت السوداء تلك، كأنه سلام على «المسلماني».

-13-

كان الظلام كثيفاً وشديداً وكثيراً ومنتشراً في تلك الطفولة. وفي ذلك الظلام كانت تتكدس وتختفي أرواح منظورة وغير منظورة، إلا أنها مخيفة في كل الأحوال. هذا لا يعني أنه لا أحد يتحدث عن ظهور الجن في النهار، فذلك النوع من الكائنات يتقاسم الحياة مع البشر، والحكايات عنه تملأ الأحاديث، بل يكاد المرء التعثر بمثل تلك المخلوقات الخفية وهو يجتاز هذا الطريق أو ذاك.

ففي ظهيرة، وبينما كنت وأمي في طريقنا إلى نخل جدي رأينا كومة من السواد في ظل «أشخرة»[2]، فابتعدت بي أمي عن هناك

---

(1) «الفرَّاش»: يقال للمستخدم في المدارس والمؤسسات الحكومية في العقود الأخيرة من القرن العشرين «فرّاشاً»، وفي القديم كان يقال لبعض العاملين في القصور «فرّاش» و«فراريش»، وربما جاءت التسمية من كونهم يهتمون بنظافة الفراش والأثاث.

(2) وجمعها: «أشخر»، شجرة صحراوية، حليبية الأغصان، وكانت أغصانها تستخدم في صنع الرصاص، وشفاء من بعض الأمراض، وترتبط في الذاكرة الجماعية بالجن، ربما لمظهرها الموحش والحاد وأوراقها المفلطحة.

وهي تشدني بقوة من يدي وتقول أن تلك الكومة جنية. وكنا كصغار نلهو قرب المسجد من الجنوب، وكانت هناك خرابة تحولت إلى أكداس من الطين وصخور متناثرة. وكنا حينما نمر قبيل الغروب نسمع صوت صيصان وعندما نسأل يُقال لنا أن ذلك هو صوت «أم الصبيان»[1] المتخصصة في «كفخ» الأطفال، والتي يُلصق بها أغلب ما يصيبهم من أمراض.

-14-

على ما يبدو نجوت أنا وأقراني من «أم الصبيان» تلك الدجاجة الساحرة، وحينما عاد أبي من أسفاره البحرية واستقر نهائياً في خورفكان كنت قد كبرت وغدوت صبياً يُعتمد عليه في تلبية احتياجات المنزل.

بعد عودته بفترة عَمِل أبي في محطة الكهرباء، إلا أن البحر بقي شاغله الروحي. لهذا كان يتحيَّن كل فرصة لكي يعمل في متعلقات البحر، سواء في البيت أم على الشاطئ.

لهذا كان بيتنا على الدوام مملوءاً بالحبال والسنانير وغيرها من أدوات الصيد. وكما كانت النسوة تحيك الثياب كان يجلس أبي كأي بحار يرتق هذا الشبك، أو يعدُّ تلك السنارة، أو يعقد ذلك الحبل.

---

(1) حول «أم الصبيان» يمكن قراءة هامش -4-، ص 35 من هذا الكتاب.

وبظني فإن الأساس من عمل البحار يكمن هنا. فالفن البحري تجده في الأنواع العديدة لعُقد الحبال وخيوط الصيد، وتكاد تكون هذه الزخرفة والقدرة والذائقة في عمل الصياد وهي ما يعكس مهارته وخبرته. فالذي لا يعرف مختلف أنواع عُقد الحبال في السفينة، ولم يختبر كل عُقدة في خيوط صيده، ليس بإمكان العارفين اعتباره صياداً.

أيضاً كان أبي ماهراً في صنع «القراقير». وكان يفترش عادة ظل «الشريشة» في وسط البيت، غطاء القرقور أولاً، وبعد ذلك أرضيته، ثم يعمل على مدخله. ويعرف من شَهِد هذا «النسج» كم هو دقيق، وكم بحاجة إلى مهارة وصبر لا ينفد.

فالصياد بصنعه «القرقور» يُعد طاولة يُقدم من خلالها الوليمة / الطعم لأسماك القاع. لهذا لفت انتباهي على الدوام الشَبه البنيوي الواضح بين الأجزاء التي يتكون منها القرقور، والأشكال التي تنسجها النساء من سعف النخيل كأدوات لتقديم الطعام أو لحفظه.

إن الصياد وبعد أن ينتهي من صنع «القرقور» يبحث عن «الشبا» (نوع من نباتات ساحل البحر) كي يزين به الوليمة. ولقد وصل الأمر بأبي إلى أن يصحبني ذات يوم في السيارة إلى أم القيوين لإحضار «الشبا»، بعد أن قلَّ وندر وجوده في المنطقة الشرقية.

غير «القراقير» كان أبي يعمل بين فترة وأخرى على قاربه الصغير، «نعلِّيه»، من العلو، أي نرفعه على الشاطئ لكي يتم دهنه بـ«الصَل»

و«الودك»[1]، أو لسد ثقوبه وإصلاح ندوبه. في مثل هذا العمل كنت كثيراً ما أقضى النهار متنقلاً بين البيت وحيث يجلس القارب مزوداً أبي بما ينقصه، متحاشياً ارتكاب أي زلة أعاقب عليها. خاصة أن الأدوات المستعملة في هذه العملية، كانت خشنة ومؤلمة.

أما عن الطرق المستخدمة في الصيد فهي عديدة، وكان يعجبني منها «الحداق» و«اللفح»[2]. لكننا، في كل مرة، كان علينا المرور أولاً «لمباراة»[3] أو اكتشاف ما اصطادته «القراقير»[4] المتروكة منذ فترة في عمق البحر.

قبل دخول الماكينات كنا نجذف حتى عرض البحر، وكنت أمتعض سراً من التجذيف. فساعدا أبي القويان يمكنانه من السرعة، ومقارنة بهما تبدو يداي المعتادتان على القراءة والكتابة ضعيفتين مما يضطرني إلى بذل جهد أكبر كي لا أغضبه، خاصة أننا وحيدان في عرض البحر وطوله.

لقد كانت لائحة شيطنتي وما ارتكبته من حماقات وأخطاء جاهزة، وبإمكانه فتحها بأية لحظة ومعاقبتي كيفما يشاء إذ لا طريق للهروب في ذلك العرض والطول. وأقرب عقاب عنده في هذه

---

(1) يستخرج من الأسماك الكبيرة أو الحيتان ويتم به دهن خشب السفن.

(2) «اللفح»: طريقة صيد بالسنارة تعتمد على السرعة، وتستخدم لاصطياد أسماك السطح المهاجرة التي تمر على سواحل المنطقة كأسراب كبيرة.

(3) «المباراة»: من «باری»: اعتنی، وهي فصيحة.

(4) جمع «قرور»: قفص كان يستخدم من جريد النخلة وأليافها، ويصيد الأسماك القاعية.

الحالة إغراق رأسي في اللجة، كما حدث فعلاً ذات مرة، لهذا ربما لم أتعلم السباحة حتى اليوم.

في «اللفح» يزداد الأمر سوءاً، إذ أن طريقة الصيد هذه تعتمد على سرعة القارب. فحين تقترب قطعان أسماك «الكنعد»[1] و«القباب» و«الصدى»[2] من الساحل، يرمي الصيادون سنارة خصوصية على القطيع ويسرعون حتى «تلفح» أو تنشب السنارة في فم أو جسم واحدة من تلك الأسماك. ورغم التعب الذي ينتاب مجذف مثلي عند هذه الطريقة، كانت المتعة والبهجة بالنسبة لي في اختراق القارب لقطيع الأسماك ذاك، والحركات البهلوانية التي يحلو لتلك الأسماك لعبها عند مرورنا، والطيور التي كانت تتبعنا. وقبل كل شيء الصيد الوافر الذي كُنا أحياناً نعجز عن حمله دفعة واحدة إلى البيت.

ويكاد المرء يشعر حينما يبتعد عن الساحل ويتوغل في البحر بأنه أضحى حُراً من كل قيود الأرض. تصغر البيوت وتخف وطأة الجبال. وثم من يحمل أو يتحمل قدميك (القارب أو القارب على البحر) اللتين لطالما أنَتّا وهما تحملان جسدك وتدبان على الأرض. لطالما حاولتا الفرار من تحت جسدك ذاك، ودون جدوى.

من هناك، من وجهة نظر البحر، ترى مشهد اليابسة من خارج

---

(1) «الكنعد»: سمك مهاجر يقال له King Fish بالإنجليزية، ويعتمد عليه في حرفة «المالح».

(2) «الصدى» و«القباب» و«الدجاجوه» من أنواع أسماك التونة.

الدائرة، وتفكر بمعزل عن التراب، وتختفي الجدران من داخلك.

وكأنك لست من البشر. تنظر من على هدهدة ماء التكوين، إلى أولئك البشر المتدلية أقدامهم في الفراغ من على ظهور الحمير، أو أولئك الذين يمشون على سيقانهم – يا للعجب – وهم عائدون إلى بيوتهم قبيل الغروب، أو خارجون منها قبل الشروق.

وكنا من عرض البحر نرى ساحل حينًا، بل كل الأحياء المسكونة في خورفكان وقد انغلقت عليها الجبال واختفت في رحم ذلك الخفاء، ونمر بجبل يُغطِّس رأسه في البحر بينما تتراقص الطيور فوق الرأس كأنها أحلامه.

–14–

أعالي قريتي «الولية» و«الزبارة»[1] كانت منطقة الصيد المفضلة عند أبي. وغالباً ما كنا نمر ونحن في طريقنا إلى هناك بسفن كبيرة أو صغيرة، قديمة أو حديثة، جاءت من أقاصي العالم منتظرة الإذن لدخول الميناء.

رؤية تلك السفن ومشاهدة الشعوب التي تسكنها عن كثب سفر للعين. وحينما يتوقف القارب وتكون الريح نائمة، نسمع من هذه السفن الأصوات والأغاني وهي تتهادى مثرية صمت البحر المتموج. من هناك أيضاً كنا نرى بيوت القريتين والمزارع التي تحيط بها. ومن

(1) «الولية» و«الزبارة» من القرى المجاورة لخورفكان باتجاه دبا.

هذه المزارع يرتفع الدخان، دخان «الطعمة»[1]، كي يتلاشى بعد ذلك في الفضاء اللامتناهي. البحر من تحتنا صافٍ ماؤه طبقات على طبقات، شرائح صفاء على أخرى. وكأن أعماقه مرايا مفتوحة على الأسرار وآبار على الأنهار وكوى على الفيض.

إنك في «الحداق» (الصيد بالسنارة) تمد خيطك إلى قلب البحر، وتحس أصابعك بأنفاس أعماقه وحشرجاتها. صبوراً جداً ومسترخياً تنتظر فرصة من الأفواه الصغيرة للأسماك.. فرصة، فرصتان، وها هو الخيط يرتفع بالغنيمة.

ومن القضمة الأولى يعرف الصيادون المحترفون حتى نوع السمكة التي تلاعبهم وتداعبهم وتتكلم معهم عبر الخيط، قبل أن يخدعها الطعم فتبلعه. ثم أنهم يعرفون أصنافها من محاولاتها البائسة وأحياناً الناجحة في التخلص من هذا الفخ.

كانت الساعات الطويلة للصيد بـ«الحداق» ساعات تأمل وصبر ونظر في مرآة البحر والسماء كما في مرايا الداخل والنفس.

الرزق بمفهومه الديني تعرفه على حقيقته في تلك الساعات، كما تفهم الحظ في ذلك الاتفاق بين السماء والبحر والرياح والأصابع والأسماك والتيارات والقارب والطُعم والتفكير والمبادرة والإرادة

(1) «الطعمة» وتسمى أيضاً بـ«النفيعة» و«الفخار» وهي وجبة تطبخ للأبقار (يساعدها على ما يبدو في در الحليب) وتتكون من بقايا العلف والتمر وغيره من الأعشاب والنباتات، وأغلب الدخان الذي كان يرتفع في بساتين القرى قبيل الغروب في الماضي كان من طبخ هذه الوجبة.

كي تصطاد ما سيصبح في السوق، على دكة السوق مجرد: جثة سمكة.

في تلك الساعات تعبر فوق رأسك الطيور متجهة نحو أعشاشها على الأمواج، وتعبر الخواطر التي لا تمشي على الأرض. وتعبر مياه البحر من تحتك بأفاعيها وقناديلها وخيوطها الحية والأمواج التي تحولت جروحاً أو ابتسامات، وتعبر من حولك الجهات.

كنا في الأيام التي لا نصيد فيها إلا القليل يستبد بنا الاحباط ويجثم فوق رؤوسنا ظل الجبل، لكننا غالباً ما كنا نصيد كميات تكفينا طعاماً لأيام عديدة، وما يزيد نوزع بعضه على الجيران ونبيع بعضه الآخر على المدرسين، أو في السوق.

ولأسباب تعود إلى المصادفة وحدها كنت أصيد أحياناً أكثر من أبي فتكون تلك اللحظة من الأوقات القليلة التي أحسُّ فيها بالزهو بعد أن جاريته في واحدة من الممارسات البحرية الكثيرة التي يعدّ خبيراً بها.

وكان أكثر ما يدهشني وقتها معرفته لـ«النيشان» أو العلامة. إذ كنت في البدء أستغرب كيف يعرف مثلاً أنه أنزل «القرقور» في هذه المنطقة بالذات من عرض البحر، أو كيف يعود بعد أيام إلى المكان ذاته بالضبط، والذي سبق أن صدنا فيه صيداً وفيراً. بعدها فهمت أنه يعتمد في ذلك اعتماداً رئيسياً على «النيشان»، فحين يتداخل جبل في جبل ويصلان إلى نقطة مشتركة فذلك «النيشان» وتلك العلامة،

وعندما يختفي بيت في مزرعة أو تتوارى تلك المزرعة خلف بناء أكبر منها فتلك العلامة وذلك «النيشان».

وكثيراً ما كان أبي يختبرني في هذه العلامات حتى صرت أجيد تحديدها، ومن ثم قراءتها من جديد.

إن معرفة أشخاص من جيل أبي بالبحر كانت معرفة عميقة للغاية وعملية كذلك. وكانت في الماضي تورّث من جيل إلى جيل، وهي معرفة حية وتجريبية بالأنواء والنجوم والبحار واليابسة والنفوس. فالسفن التي مرت من حيث كنا نصطاد لا تعد ولا تحصى عبر العصور. سفن من الصين وأخرى استعمارية من أوروبا. ومن على تلك المياه عبر الإسكندر الأكبر والسندباد والقراصنة والمبشرون وصيادوا البشر والفرص والباحثون عن اللؤلؤ والذهب والأشعار والنفط والمغامرات والملح والمغر والسمك المجفف والخيول وأمريكا والتوابل والنساء والبخور والأغاني والقهوة والأحلام والبذور.

على تموج تلك المياه رأى الأهالي وجوههم قبل عثورهم على المرايا، وسبحوا في قيعان نفوسهم قبل ابتداع المرشدين الروحيين حتى.

.بمياه البحر وحدها يُمكن تشبيه المداد الرباني، كما يمكن تشبيه إيقاعات الروح بأمواجه. على تلك الأمواج سالت دماء أجدادي ودموعهم وأعمارهم، تماماً كما سالت طفولتي على باب بيتنا المفتوح، أو الذي كان مفتوحاً على البحر، فلقد كان يسعك في تلك

الحياة وفي أية لحظة توقع أن تدق الموجة على الباب، باب البيت أو باب الجسد أو باب المخيلة أو باب الحلم، وتضغط على جرس الحياة.

غربان وملائكة وأفلام

-1-

عن أبيها ورثت أمي بضع نخيلٍ في تلك البقعة الخضراء من خورفكان والتي يحفها السوق من جهة البحر. وكان علينا مرة أو مرتين في الأسبوع قطع تلك المسافة الطويلة من حيّنا حتى هناك كي نزور ذلك النخل ونسقيه.

تلك الرحلة مع أمي على الأقدام من أبهج أوقات الصبا وأكثرها مسرة. إذ يبدأ النخل بالظهور عن يميننا بينما يفترش البحر سعادته على الشمال. البحر الذي يكشف وقت الجَزْر عند تلك الناحية عن جانب صخري مدهش من جسده، وتجثو على هذا الجانب النسوة وأطفالهن كي يقلبوا أحجاره بحثاً عن محار تؤكل أحشاؤه، أو ما يسمونه بـ«الدوك». ولطالما كان منظر النسوة بالثياب القروية الفاقعة والمتضاربة الألوان وهنَّ ينتقلن بين تلك الصخور الداكنة قبل غروب الشمس يثير مشهداً خصباً يعُمِّق الأبصار.

ويزداد البصر غنى لو كنت أحد أطفال أولئك النسوة وترعى البحر خلف «اشمادهن»[1] المسحوبة خلفهن، وتقلِّب الصخور معهن. هنالك ستجد من مخلوقات البحر ما لا يُعد وما لا يوصف. بأسماء وبلا أسماء. نجوم وقنافذ. قواقع ومراجين وحلازين، بحريات ممتلئة كقضيب ثمل، وأخرى شفافة كأنفاس في مرآة.

إنني إلى اليوم لا أستطيع الإشاحة بذاكرتي عن ذلك الغنى المتناثر

(1) «أشماد» جمع «شمد»، وعن «الشمد» راجع هامش 2 ص 46 من هذا الكتاب.

على جانبي الطريق الذي يقودنا إلى نخل جدي، وكُنا غالباً ما ندخل إلى تلك البقعة العزيزة على قلبي عبر «سكة سكينة»[1]. وكانت تلك السكة أحد واديين كبيرين يأتيان من الجبال ويخترقان خورفكان، منتهكان كل ما لدى الأرض من قوة نحو البحر. إلا أن ما يقلل على الدوام من اندفاعهما، أيام كانت هنالك أمطار طويلة بالفعل، هو اتساع وطول مجاريهما.

وكانت مساحة النخل الكثيفة تقع على جانبي الواديين، أما «سكة سكينة» فهي «سكة» للحظة متدفقة من الوادي يوشك فيها على سد أنفه كي يقفز للسباحة في البحر.

وسميت بـ«سكة سكينة» تكريماً لمطوعة. «فسكينة» التي حاولت تعليم «شعب» هذا الوادي القراءة والكتابة تستحق أن يُطلق اسمها على أكثر من سكة، ورغم أنني لا أعرف الكثير من «المعلومات التاريخية» عن ذلك البيت الواقف على الجانب الغربي من الوادي والمكون من طابقين (ومن كان لديه يومئذ بيت من طابقين يظهر من بين النخل الأخضر كموجة بيضاء). فإن من أوائل مدرِّسي للدين كان «الشيخ عبدالله بن ناصر» والذي طلع، على ما سمعت من هذا البيت كما طلع من هذا البيت رجل انتمى لاحقاً إلى الأخوان المسلمين اسمه: أحمد صالح. وآخر إخباري عنه أنه كان استاذاً في الجامعة.

يقابل «بيت العلم» ذاك، مزارع وأراضٍ كثيرة تعود إلى أهل أمي،

(1) «سكينة» مطوعة ماتت وعن عمر مديد بعد أن تذكرها في هذا العمل وبصياغته الأولى.

وتقع على ضفتي ذلك الوادي.

على يسار الوادي (للقادم من المديفي) تتناهبك الدورب الضيقة والملتوية بين النخيل. وبدلاً من الجدران التي قامت تظهر في الأحياء، كانت تلك المزارع في طفولتي مازالت مسوّرة بـ«الأحضرة». «الأحضرة» التي تحولت بعد ذلك إلى أسلاك. وكانت تلك الأسلاك فاتحة هجران المزارع، وهلاك النخيل.

الطفل الداخل تلك البساتين يلهو في غابة. ولم تكن أشجار النخيل باسقة و«عواويين»[1] وحدها، وإنما تطول بعض الحمضيات وتتعالى جذوع المانجو في الأفق، أما تحتها فترقص أغصان الليمون بأنواعه، وأشجار الجوافة «المأكولة والمذمومة»، والتي تُسمى في هذا الساحل، ولا أدري لماذا: «زيتون»[2].

وككل غابة، أو بمعنى أصح ككل تصور لغابة، فإن طبقات الظلال واندساسات أشعة الشمس بين أوراق الأشجار تعطي لتلك اللحظات المتدفقة أشد متعها ذروة وانجراحاً.

من هنا فإن الدروب بين تلك البساتين هي المتاهة. وقد لا تسمع من رطوبتها إلا وقع الداخل، وانطلاقات الطيور بين الأغصان وأصوات الماء وآلاته.

(1) مفردها: «عوانة»، وهي النخلة الطويلة والمعمرة.

(2) من التسميات الملفتة في هذه المنطقة، فلا صلة للجوافة بالزيتون على الاطلاق لا فصيلة ولا شكلاً، ومن التسميات المشابهة أن يقال لنوع من الحمضيات «الأترنج» بينما هذه التسمية تُطلق في الشام وغيرها على الكمثري والتفاح.

من عاش تلك الأجواء لا يتذكر كيف يلعب الماء بالظلال، وكيف تلعب الظلال على الماء بالعيون فحسب، وإنما الأحواض أيضاً حينما تُغسل شقاوة الصبا بالمياه.

تحت الأشجار الظليلة كانت الأحواض ملعباً للبنات مع الأولاد. شعورهن تسبح كي تهب الظلال المتمايلة على ماء الحوض كنوزاً من الأحلام مع الأجساد الصغيرة الغضة المتشابكة كأسماك من الغيوم في قطيع فوق الماء وتحته.

وقد يُسهم الغراب بهذا الحفل «الصابئي» حين يُسقط «هنباة» من علٍ بين الأطفال الذين لم تُصبح أجسادهم أجساداً بعد ولا طفولتهم حجراً، وقد ازداد تشهي تلك «الهنباه» بعد أن نقرها الغراب وفتح أحشاءها المكتنزة بلعاب السماء.

يضاف إلى كل هذا: البساتين وأحواضها ودوربها، قرب منطقة النخيل هذه من السوق. إذ بإمكاني ترك أمي مشغولة بما تبقى لها من أمجاد والتدحرج كأغنية بين دروب النخيل حتى أظهر بين الدكاكين.

–2–

لصبي جاء من حي لا تباع فيه إلا بعض الحلويات على ما يشبه الطاولة يضعها أحد الأهالي أمام باب بيته، فإن تلك الأشياء المتنوعة التي كان يحتويها ذلك السوق (رغم أنه كان في بداية انفتاحه على

العالم) كانت تثير فيَّ الفضول، وبهجة الوقوف في الاختلاف عن أزقة الحي، حيي، والتي حفظتها عن ظهر قدم.

ولعل ضياعي بين تلك الدكاكين وقتها يشبه الحرية ونيلها. وللأشياء التي تشتريها، إذا ما أمكن ذلك، نكهة الأعياد.

وكان في ذلك السوق مسجد قديم ومكتبة صغيرة بجوار المسجد فتحها رجل مغامر اسمه مبارك عَمِل حتى وقت قريب في شرطة خورفكان.

كما كان في السوق قهوة تطل على البحر تدعى بقهوة القاضي كنت أرى فيها رجالاً جالسين بوجوم وآخرين يتحدثون بينما تعلو أحاديثهم «كركرة القدو»[1]، وما يبعثه من سعال.

كذلك كان في آخر ذلك السوق فرع «للبنك البريطاني»، وأتذكر تلك المنطقة على وجه التحديد لسببين. الأول: جريمة قتل حدثت في داخله وانتشرت حكايتها في خورفكان انتشار النار في هشيم الفراغ. إذ اقتحم أحد اللصوص مقر البنك في إحدى الليالي ولم يجد أحداً ليقتله إلا الحارس الخورفكاني المسكين، والذي على الأغلب كان يأخذ أجرته بالسهرة، أو بالمعنى العملي بالقطعة.

السبب الثاني: اختباء هذا البنك إلى جوار مركز للشرطة أزيل بعد ذلك بالرغم من جمالية معماره. وكان ذلك المركز أعلى مبنى في

(1) «القدو»: شيشة أو نارجيلة صيادي السمك وغواصي اللؤلؤ في الخليج قديماً، ويسمع له صوت عالٍ أو «كركرة» عند تعاطيه.

خورفكان حتى وقت قريب من نهاية صباي.

وأمام ذلك المركز كانت تعرض أفلام سينمائية أو وثائقية تجول بها على النجوع سيارات ما كان يسمى وقتها بـ«القوافل الثقافية»[1] إلا أنني لا أتذكر إلا مشاهدة الظلال لكثرة ما يحتشد الناس أمام قماش العرض الذي تظهر عليه الصور، تماماً كما سيظهر الموتى إلى الحياة يوم القيامة.

لكن الفيلم الذي أتذكر حضوره ومشاهدته بوضوح هو: «عنترة».

أمسك أبي بيدي في يوم من الأيام وأخذنا نقطع الدروب. أقدامنا تتعثر بالحصى وعيوننا بأوهام الظلام حتى وصلنا بعد مسير لاهث إلى السينما التي فُتحت حينها.

من الأفضل ألاّ أعي ما شاهدته في تلك الليلة. لكنه بالتأكيد فيلماً مختلفاً عن فيلم «عنترة» الذي رأيته مع الأسف، بعد ذلك، عندما كبرت.

وعلى ما يبدو فإن أبي كان معجباً جداً بدور شيبوب. لكن خُيّل لي (بعد مشاهدتي ذلك العرض) أنني شيبوب وأمامي أبي عنترة نقطع الفيافي في آخر الليل نحو المنزل.

(1) في بداية تكوين الدولة الاتحادية كونت وزارة الإعلام قسماً يدعى القوافل الثقافية، وكان مقصده أن تدور سيارات على القرى والمحاضر والأحياء النائية لإلقاء محاضرات تثقيفية وعرض أفلام.

–3–

في أحد الأيام كذلك كنت في السوق وسمعت طفلين لا أعرفهما يتحدثان عن طوفان سيأتي على خورفكان بعد أيام، وأن موجته ستكون أعلى من مركز الشرطة.

لم أكن أعرف ما هو الطوفان، لكن تلك الصورة عن الموجة الضخمة لم تفارق ذهني من لحظتها.

طوال ليال وأيام كان ينشأ في داخلي خوف صخري، أحمله وحدي، بينما أرى بقية من حولي يمارسون حياتهم بتفاهة، وكالمعتاد.

ولا أدري لماذا اعتبرت ما سمعته من الطفلين نبوءة وسراً يخصانني. وككل معرفة من هذا النوع كان عليّ تحمل عذابها.

كيف سأهرب من تحت تلك الموجة كمن يزيل عنه اللحاف وأنجو؟

وطوال الليل كانت تركب على أحلامي في النوم أمواج كبيرة من الأوهام، وعندما أستيقظ أركض إلى الشاطئ القريب كي أطمئن على البحر فألقاه كالعادة مستريحاً في جلسته يُداعب الموج.

في لحظات الخوف تلك كان قلبي ينتفخ ألماً، والحيرة تمزقني شر تمزيق، كأنها ماء قرَّر فجأة الخروج من سعادة الحجر.

كنت قد رأيت قبلاً في جو عاصف غضب البحر. كانت أمواجه كبيرة لكنها لم تكن تتخطى كثبان الشاطئ. وكان من أشد مظاهر

ذلك الغضب أن نرى سفناً خشبية وغير خشبية عديدة قد حاذت الشاطئ، أو أن تزور مياه البحر «الغليلة» وترفع القاذورات من ذلك الحلقوم القذر.

حينها كنا نجهز ألعاباً من مراكب أو نسبح في تلك المياه الضحلة مفتشين عن أسماء تائهة. وأحياناً نمسك بطيور ضخمة ولكنها للغرابة لا تبدي أية مقاومة تذكر.

لكنني لم أسمع قط عن موجة كتلك التي وصفها الطفلان في السوق.

بعد أيام انتشر الخبر في كل الحي.

انتصرت على رعبي ولم أعد خائفاً حتى من الطوفان.

كنت أعرف، وعيوني الآن يملؤها الضحك.

الكثيرون جمعوا كل ما هو ثمين من بيوتهم وجمعوا أنفسهم وأطفالهم ومواشيهم وقرروا التحصن في الجبال. بل إن بعضهم بات في الجبال فعلاً ليلة الطوفان الموعودة.

أمي البطلة قالت:

– مادام أبوك غير موجود فإنني لن أترك البيت أبداً؟

فنمنا.

عندما استيقظت في صباح اليوم التالي ركضت نحو البحر ومسحت على إحدى أمواجه بيدي هاتين.. واختفت الشائعة.

—4—

بعد أن تنتهي أمي من سقاية «نخلها» تأخذني من يدي لزيارة أهلها التي تبدأ بيوتهم عند «الضفة» الأخرى للوادي. وكان أقرب منزل إلى «نخل جدي» منزل خالتي حليمة التي لم تنجب إلا ابنا واحداً سمته: أحمد، كذلك، والذي يكاد يشبهني جداً لولا «اختلاف الثقافات»، وعندما كنا نذهب إلى حي «الرفاع» لم نكن نزور إلا خالتي حليمة، رغم وجود بيت خالتي مريم على بعد أربعة أو خمسة بيوت من منزل الأولى، فأمي كانت في خصام طويل مع خالتي مريم لم ينته إلا بموت الأخيرة. وبالطبع فهي لا تزور أبناء الخالة مريم أو بناتها، بمن فيهم تلك التي تزوجها أحد أعمامي. هذا العم الذي تتغير علاقة أمي مع عائلته من فترة إلى أخرى، أما أنا فلم أكن على علاقة جيدة مع هذا العم أبداً، ولعل ذلك يعود إلى السنين المبكرة من «طفولتي»، حيث جئت ماشياً أو باكياً من المديفي وحتى «الرفاع»، فأبي ضربني، أو أبرحني ضرباً، وربطني بـ«الشريشة» طوال النهار، لهذا هربت وجئت مشتكياً إلى عمي، فما كان من هذا العم إلا أن صار ملكاً أكثر من الملك فقام بربطي إلى شجرة طوال الليل، ومن يومها وأنا أحمل نحوه «فجوة»، أظنها متبادلة وحتى اليوم.

لكن أمي لم يكن ينقصها المعارف كي تزورهم في ذلك الحي. وكنت أصطحبها في تلك الزيارات، كما كنت أقوم بمغامراتي الخاصة كاللعب مع أي صبية أو صبي أصادفه في الطريق، لكن

الذي ظل وسيظل مؤثراً في حياتي هي تلك اللحظة التي كنت أنسل فيها من بيت خالتي حليمة فأرى خالتي مريم تلوح لي على طرف زاوية السكة فأهرع إليها. لتعطيني كيساً من هداياها اللذيذة وتغمرني بحنان سريع، وكأنها تتجنب أن تضبطنا أمي ونحن في تلك «الخلوة».

والمنازل التي يسكنها أهل أمي الآن في حي «الرفاع» ليست منازلهم الأصلية. لقد كانوا يسكنون في منطقة أضحت مهجورة ويندس فيها –نظراً لأجورها الرخيصة– المزيد من العمال الهنود والباكستانيين وغيرهم. ولم تصبح المنطقة مهجورة فحسب، وإنما اسمها غدا منسياً.

يُقال بأن اسمها في الماضي كان: «السيبه». اسم غامض تماماً[1]. وأقرب جذر لغوي إليها: «ساب». وبالفعل فإن البحر حتى «يسيب» حتى البيوت في الماضي الذي لا أملك الآن إلا تخيل أمواجه الاسم الأكثر حضوراً، رغم أنه لا يعرفه اليوم إلا القليلون: «المهكة». هذا الاسم أكثر غموضاً. بل أن غموضه يوشك أن يكون مقفلاً. ماذا تعني «المهكة»؟ فكَّرت. فكّرت كثيراً ولم أجد حتى بصيص دلالة. بل لعَّل آدم، الأب المفترض للبشرية يعرف معناه، إذ ليس من المعقول أن يسقط اسم هذا الحي، وأن تسقط «المَهَكَّة» من القاموس حين علَّم الله آدم «الأسماء كلها».

(1) عرفت لاحقاً بأن «السيبه» كان يُطلق على الحصن المبني من سعف وجذوع النخل.

ولقد اطلعت على خريطة قديمة لخورفكان رسمها المستعمرون البرتغاليون، وأرجح بأنَّ ذلك السور الرئيسي في تلك الصورة هو: «المهكة» (كنت أوشك أن أكتب: «حالية»)، إلا أنني تراجعت). وبالفعل آثار، وحتى فترة متقدمة كان يحدّ هذه الهضبة من جهة البساتين مسجد ذو عمارة ملفتة. ولقد أزيل ذلك المسجد القديم إلاَّ أنَّ صورته مازالت متداولة وتحملها عملة الخمسة دراهم الإماراتية حتى اليوم.

ولدت أمي على الأرجح أيضاً في «المَهَكَّة» (كانت كثيراً ما تشبه هذا الاسم الغامض)، وكانت كثيراً ما تجرني من المديفي لكي نزور معاً أقاربها هناك. لكن ما أتذكره عن ذلك الحي ما يزال غائم جداً في رأسي، فلقد حدث ذلك في السنوات الأولى من حياتي.

أتذكر مثلاً ركضنا مع أطفال من أقراني بين سكة ذلك الركام الذي غدا ركاماً أكثر والقائم –أمام العيون المفتوحة جداً للبحر ونظراته الأمواج– على ركام. كما أتذكر –وإن بوضوح أقل– مشاهد أخرى متفرقة حدثت في ذلك الحي.

حي «المَهَكَّة» (الأ يوحي هذا الاسم بالهلاك؟ على الأقل بالهلاك الضاحك) يُعاد ترميمه هذه الأيام، ولكن كيف يرمِّم؟ كثير من البيوت القديمة في تلك «المَهَكَّة» مازالت بجدارنها ونوافذها وأبوابها. وبدلاً من أن يقوي «المُرَمِّم» الباقي ويكمله حسب متخيله عن كيف كانت المباني قديماً، يزيل «الباقي» تماماً، ومن ثم يُعيد البناء من جديد وإن

يكن على حسب المواد «الطبيعة» أو «البيئية» التي كانت هذه الآثار قد بُنيت بها.

هذا الجدار مثلاً في «المَهَكَّة» والذي ظل واقفاً لسنين وعقود عديدة في وجه كل الظروف العاتية التي مرّت عليه يأتي المرمم ليزيله وبقرار إداري. يزيله كي يحييه. أو هكذا يقولون. ولكن كيف تحيي شيئاً وأنت تمحيه. كيف تحييه وأنت تزيل عنه الأهم: مقاومته، قدرته على الصمود في وجه تغيرات الجغرافيا وتغيرات التاريخ، كيف تحييه وأنت تقتلع جذور روحه.

مثل هذا «ترميم»، ترميم زينة، وأتمنى ألا يتجاوز المباني «التاريخية» حتى يطاول البشر.

من أبرز البيوت التي يعاد «ترميمها»، ذلك البيت الذي مازالت ذاكرتي تحتفظ ببعض الوضوح بمشهد عشته فيه.

ومنذ كبرت وأنا اسمع بأنَّ هذا البيت ذا الشرفات البديعة والمطل على البحر هو «بيت المشتغل»، لكن يُقال أيضاً بانه في الأساس كان لجدي من أمي، وقد باعه عند الضائقة على ذلك الرجل المكنى بـ«المشتغل».

أتذكرني صغيراً في ذلك البيت، في غرفة أمامية تنفتح على الأستاذ البحر بشرفات أمامية. وأتذكرني أشاهد رجال عدّة وهم يمددون «الأجساد» الطويلة لأسماك «الكنعد» و«القباب» على حفرة مستطيلة مسقفة بالأخشاب عرضاً وطولاً. وقبل تمديد «أجساد»

الأسماك تلك، يشرحونها ويملحونها ومن ثم يتركونها لا أدري لكم من الوقت. وباختصار كانت تلك الغرفة الفسيحة و«الجميلة» مخصصة لعمل «المالح». إذ بعد ذلك يضعون تلك الشرائح في علب (قبل العُلب لا أدري بماذا كانوا يضعونها. ربما يضعونها في عُلب من فخار) أما صديدها الذي يتجمع في الحفرة تحت الأخشاب المصفوفة فيسمونه «صرابي»، ولا أتذكر أيضاً بماذا كانوا يستخدمونه، لكن رائحته وحدها التي تهبُّ الآن في ذاكرتي كافية لتملأ بالحامض ثمر كل أشجار الليمون والبرتقال والأترنج.

-5-

حي «المهكة» (يا له من اسم غريب حقاً) كان ومازال طبعاً يقع بين الواديين الرئيسيين في خورفكان. واد يفصله عن الغرب (كالمديفي..) وواد يفصله عن السوق والشرق (ذلك الوادي المسمى «بسكة سكينة»).

«سكة سكينة» أيضاً كانت تفصل بين المزارع الكثيرة التي كانت تعود إلى عائلة أمي (جدي وأخيه على الخصوص)، ولعل الكثير من خصومات أمي مع عائلتها يدور حول هذا «الورث» من مزارع أبيها. وأذكر أنها قالت يوماً بأنها ذاهبة إلى القاضي، فركضت خلفها بين تلك الأزقة الظليلة التي تتلوى بين تلك المزارع، وحين وصلنا إلى تلك البقعة خلف السوق، والتي فيها بعض أشجار صبّار وشجرة

«أَنْبَوْ»[1] معمرة. قبل وصولنا إلى تلك البقعة توقفت عند رجل قد صبغ لحيته وكحَّل عينيه. طاعن في السن قليلاً. أمامه صفيحة وعلى تلك الصفيحة بضعة أوراق. ولم يكن لهاثي من الركض خلف أمي المسرعة بين الدروب الملتوية لبساتين النخل إلا للوصول إلى هذا الرجل. فلقد كان، بالأوراق المخططة أمامه، والقلم الذي نادراً ما كنت تراه في تلك الأزمان، وصفيحة «التنك» التي يكتب عليها قاضياً، أو بمثابة قاض. ولقد جاءته أمي بإحدى شكاويها الكثيرة. كتب الرجل العريضة ومن ثَمَّ خبّأها في جيبه. ومنذ ذلك الوقت وإلى الآن لم تصل تلك الرسالة. فالبريد، بما فيه البريد القضائي، كان يركض حينها على ظهر «سلحفاة» الأوراق المتبادلة بين الوالي والرعية.

-7-

غير تلك البهجة التي كانت تنتابني حين أقضي الوقت مع أمي وهي ذاهبة لسقي ذلك الجزء السيط الذي تبقى لها من «ممتلكات أجدادها الزراعية الواسعة» - كما كانت تدعِّي-، أو أثناء سقيها، أو بعد الأنتهاء من السقي ومن ثم التخطيط لطريق العودة.

غير ذلك، فإنني أتذكر بأننا «قيّظنا» هناك أيضاً. إذ في طفولتي المبكرة كنا «تقيِّظ» بين مزارع أجدادي من أمي، ولم يُرتجل مقيظ

(1) نوع من الأشجار الباسقة قلَّ وجوده أو اختفى الآن ولا أعرف مقابله العربي أو الأجنبي، و«الأَنْبو» هذا نوعين: نوع يثمر ثمرة تشبه الزيتون إلا أنها صلبة ونوع يثمر ثمرة صلبة مليئة بسائل مخاطي لذيذ!!

المديفي إلا بعدما توطد هذا الحي الجديد –نسبياً– كحي.

بين مزارع أجدادي كنا نقيظ بينما يُطل علينا من ركبة أحد الجبال الشاهقة والمجاورة لتلك المزرع حصن بناه عم أمي. وكان يطيب لأمي الفخر بأمجاد أجدادها الغابرة وحتى ولو لم تكن تنظر حتى للجبال. بل كانت تقول باعتزاز بأن ثم محاولة جرت من أهلها لإجبارها على الزواج من أحد أقربائها حين تقدم أبي للزواج منها. وأنها صعدت حتى حصن عمها ومعها سكين، مهددة بالانتحار إذا ما تم الاستمرار على إجبارها على ذلك الزواج.

هل أحبت أمي أبي؟ أشك. ربما. لا أدري. أشك..

بين المزارع، في ذلك المقيظ، كان أهلي، كان أولئك «النقبين» يصنعون «عرشان» أنيقة ويبدأون في ممارسة المقيظ. أما المقيظ فحفلة، بالنسبة إلينا نحن الصغار، وكنا كثيراً ما نقضي نهارات، مغدقة بالظل حين نمشي بين دروب تلك المزارع الضيقة، فوق رؤوسنا تتشابك النخيل الطويلة مع أغصان المانجو، وتحتها مباشرة تطلق أشجار «الزيتون» (الجوافة) والليمون بأنواعه روائحها الفذة، بينما تهدر مكينة الماء ذات «الهندل»[1] مسمعة صوت حياة هذه المزرعة للمزارع الأخرى، وقربها ذلك الحوض الصغير حيث، مرّة أخرى، تغرق أويقات نهاراتنا من الضحك، وتسبح أعضاؤنا، صبايا وصبية في ذلك الظل الجاري، بينما قد يمنُّ علينا الغراب، طائر ظلام

---

(1) مفردة إنجليزية بمعنى المقبض.

النهار إياه، وهو على أعلى الأغصان من شجرة المانجو العالية، بنقر ثمرة ناضجة، وبمجرد نقرها، نقرة خفيفة، تسقط بين أجسادنا، في الماء، فتأكلها قبل أفواهنا العيون.

-6-

مما لا أنساه من مقيظ «وادي» أو «سكة سكنية» أحد الأيام في ذلك المقيظ. ولعلي أحتفظ بصورة ذكريات طفولية مضخمة جداً عن ذلك اليوم.

كان ذلك المقيظ في الصيف طبعاً، إلا أن ذلك اليوم كان ممطراً جداً. وكنا في عرشان المقيظ ننتظر وصول خالتي موزة مع عائلة زوجها من الشارقة. كان المطر يهطل بشدة، بشدة جداً - هكذا هي الصورة في ذاكرتي - حتى أن وادي «سكة سكينة» قد امتلأ بذلك الماء الهادر نحو البحر، والذي له لون الطين، غير الوادي فإنك وعندما تنظر إلى الجبال المحيطة بك، فإنك ترى بأنه قد ظهرت لها عروق وأوردة طينية من قمة رأسها، وحتى أخمص قدميها.

في ذلك المقيظ، وفي تلك «العرشان»، وتحت ذلك المطر كنا ننتظر إذن مجيء خالتي موزة وزوجها من الشارقة. وأن يأتوا بـ«السيارة». تمشي السيارة على الأرض في تلك الأيام بخورفكان فتلك أعجوبة، أما أن تمشي على الماء فذلك الأعجب.

فنحن الذين كنا ننتظر مجيء خالتي أمام «العرشان» فجأة نرى

سيارة قادمة محمَّلة بكل ما لا تستطيعه من البقش واللوازم والحاجيات وهي تسبح في المياه الطينية والغليظة لذلك الوادي، ولعلها احتاجت عند المنعرج الذي نقيم عليه «عرشاننا» إلى سواعد قوية من بضعة رجال كي يجروا تلك السيارة كالقارب إلى تلك الضفة من الوادي، وعندما استقرت السيارة على ساحلها ذاك نزل «الحضّار»[1]، ومعهم «الصوغات»[2].

ومما أتذكره كذلك في ذلك المقيظ حضور أبي في صيف ما من تلك الأصياف. وأتذكر بأنني كنت أنا وهو داخل «عريشنا» في ذلك المقيظ، وكان هذا الأب الذي لا أراه إلا لماماً نائماً، وأن أنظر إليه، إلى نومه، إلى رقبته، إلى وجهه وجبهته، ولربما تساءلت: من هذا يا ترى؟

-7-

تدور خصومات أمي مع أهلها في أغلبها، كما أرجِّح، حول تلك المزارع والأراضي الكثيرة والتي تعود إلى أبيها، والتي رغم خصوماتها، لم تمتلك في الآخر منها إلا بقعة صغيرة من النخل اضطرت إلى بيعها، بعد ذلك، بما يقرب الخمسمائة درهم.

يعود ذلك أولاً إلى أن جدي لم ينجب إلا بناتاً: منهم خالتي موزة

(1) «الحضَّار»: من حضر المقيظ ومن شهده، أي المقيظون.

(2) جمع «صوغة»: الهدية.

التي تزوجت ذلك الرجل من الشارقة، لكنها كانت عاقراً، ولهذا لربما تزوج عليها زوجة أخرى، ورغم ذلك ظل محتفظاً بها إلى أن كبرت بالسن و«خرفّت»، ولما «خرَّفت» استضافها ابن خالتي الكبير: علي، وظلت معه حتى ماتت.

خرَّفت أيضاً خالتي الأخرى: حليمة، أم أحمد، وهي التي لم تنجب إلا ابناً واحداً، تماماً كأمي التي لا يبدو بأن «الجلطة»[1] ستسمح لها حتى بـ«التخريف».

خالتي الثالثة أنقذت أيضاً من «التخريف» بموتها المبكر في «باص الحج» لكنها أنجبت العديد من البنات والأولاد.

«الأولاد عزوة»، والمجتمع ذكوري جداً، لهذا من المفهوم أن تتلاشى ممتلكات بنات كأمي وشقيقاتها، هذا إذا صدِّقنا طبعاً ذلك الاتساع «الخرافي» الذي تفضِّل أمي أن تصف فيه مزارع جدي وبيوتاته التي كانت.

وإضافة لكون هؤلاء بنات يفتقدن لذلك الرجل/ الجدار الكبير الذي قد يصد عنهن عوائد الدهر، فإن بشر تلك الأزمان كانوا على الأغلب لا يعرفون القراءة والكتابة. ومن هنا بالذات لا يعرفون كيف يسجلون الأراضي التي تعود إلى آبائهم أو أجدادهم في سجلات البلدية، لا يعرفون الخرائط، بالمقارنة مع أولئك الجدد، الذين لا

---

(1) ضربت الجلطة رأس أمي وجسدها وهي ملقاة الآن على السرير بلا ذاكرة، بلا حركة، بلا حياة، من لحظتها.

يكادون يفكون الخط، ولكنهم يعرفون البلدية وأهمية تسجيل الأراضي و«يقدِّرون الخرائط».

ومع تغير المراتب والقيم عند الانتقال من المجتمع «القديم» إلى هذا المجتمع الجديد، فإن هؤلاء الجدد وفي سبيل مصالحهم الشخصية لا يترددون في محو أولئك السكان القدامى متى ما استطاعوا، إذ وفي المديفي –على سبيل المثال– والتي غدت كبيرة اليوم أخذ مدراء البلدية والحكومة الأراضي وبنوها فللاً لهم ولأقاربهم، ولم يبق لسكان الحي القديم إلا تلك البيوت الشعبية المهترئة التي مُنَّ عليهم بها قبل ثلاثة عقود.

يرضون بذلك فليرضوا. لا يرضون فليدقوا رؤوسهم بالسقوف التي تسقط الآن أو ستسقط لاحقاً على رؤوسهم. أو كما قال أحد المسؤولين الكبار للأهالي حين قررت البلدية إزالة قلعة مميزة وتاريخية من رأس أحد جبال خورفكان:

– من يريد هذه القلعة، فليأخذها إلى بيته.

في ذمة النسيان

في المديفي، في تلك الطفولة، وبجوار بيتنا سكنت الحاجية «عاشة». لا أتذكر زوجها فقد توفي وأنا في المهد، وبقيت الحاجية في بيتها الواسع الذي لم تُعمَّر منه سوى غرفة، غرفة واحدة كبيرة على طرف البيت، وأمام الغرفة «ليوان» أو إيوان. وتحت الإيوان «منامة» مرتبة ونظيفة تبدو لمن يجلس عليها بأنها المساحة الوحيدة المأهولة في ذلك البيت.

وعلى ما يبدو فإن الحاجية لم تكن بحاجة لأكثر من ذلك إذ قليلاً ما تهدأ، فلقد كان شاغلها وانشغالها الآخرون، تقضي في منازلهم جل أوقاتها، ناقلة الكلام والأخبار والحكايات من بيت إلى بيت. ولم تكن مساكن المدرسين أو غيرهم ممن سكن المديفي بِعَصِي دخولها على الحاجية فهي قادرة على اختراق كل الأبواب.

تأتي الحاجية وقت الإفطار والغداء والعشاء. تأتي ملفعة بالتقوى وتأتي مسرعة ولاهثة كأنما تطاردها السنون أو كأنها مقدمة على عمل لا يؤجل. وكان من أكثر مظاهرها رسوخاً في الذهن حملها لفنجان قهوتها النظيف في جيبها، وكانت تُخرجه مع المسباح في كل مرة تشرب فيها من قهوة الآخرين.

وبقدر ما كانت الحاجية تنشر الشائعات والأقاويل، بقدر ما كان كثير من هذه الأقاويل والحكايات يدور حول شخصيتها. إذ كان هناك من يقول إنها ساحرة، وبحلفانٍ غليظ يضيف هذا المتقول إنه لطالما رآها في الدروب وخلفها تركضُ لاهثة كلاب عجيبة تختفي

بمجرد اقترابه من الحاجية.

لكن الحاجية لم تخفني يوماً، بل كانت تحبني لسببين رئيسيين: الأول اعتمادها الأساسي عليّ في انشاد قصائد البرعي و«دلائل الخيرات»، إذ كثيراً ما كانت تأخذني لتجلسني مع جمع من النسوة كي أتلو عليها هذه القصيدة أو ذلك الدعاء. وكانت دموع الحاجية أسرع من خطواتها إلى البيوت.

أما العامل الثاني فكان الصيد، فعن طريقي وحدي كان بإمكانها تقصي أخبار الصيادين على الشاطئ وكمية المصاد، فهي على الأغلب تكمن لي عند باب البيت وتباغتني بما يفوق قدرتي على معرفة الكيفية التي عرفت فيها بأنني كنت على البحر، وتقبض عليّ مبللاً، تملأ وجهي قشور السمك، وبمجرد ما تنتهي من التحقيق معي تدخل بيتها وتخرج بقفيرها نحو البحر كي تملؤه وتعود. وبما أنها لم تكن تطبخ في البيت، أو هكذا كان يقال، فلا أدري إلى أين كانت تذهب بكل تلك الأسماك.

وفي عصر أحد الأيام اصطادتني الحاجية وأنا أركض نحو البيت قادماً من الشاطئ. إذ ربما يومها كنت ألعبُ على الشاطئ فصادف أن نشبت حفلة «الضغوى». اشتركت مع الصيادين وبعد أن انتهينا لم يكن معي قفير لحمل السمك فعدت مسرعاً إلى البيت كي أحضره، فقبضت عليّ الحاجية.

لم أتأخر في البيت، بل خطفت القفير وخرجت مسرعاً. وحينها

كانت قد انتهت قبل أيام الأشغال في تمهيد وسفلتة أو تزفيت شارع الكورنيش بين حيّنا والبحر. وما أن اقتربت من ذلك الشارع المشؤوم حتى وجدت الحاجية جثة ممزقة. البرقع في صوب، والرأس ملقى في ناحية أخرى.

لقد تحولت «حاجيتنا» إلى طحين ومرت على جسدها الشائخ والهزيل شاحنة. لم يبقي شيء من جسدها إلا وتفتت. دماؤها ملأت الأسفلت أو الزفت على جانبي الشارع، ثيابها تطايرت في كل الجهات.

ركبتُ في سيارة أحد أقاربها إلى مركز الشرطة فأنا أول من رأى الحادثة. لكن سائق الشاحنة مر بعجلاته الثقيلة على جسد الحاجية، سحقها واختفى.

واليوم عندما يمر البشر من الشرق والغرب على شارع كورنيش خورفكان لا يعرفون بالطبع القربان الذي قُدم لهذا القار ولا الدم الذي سُفك من أجل هذا التطور.

لست ضد التطور ولن أكون. ويبدو لي بأن الحاجية لم تكن تعرف شيئاً اسمه الشارع ولذلك دهستها الشاحنة. لقد عاشت حياتها وهي تعبر الدروب بلا أي إحساس بالخطر. ولم يقل لها أحد حين زرع الأسفلت أمام بيتها بأن هذا الدرب بالذات بإمكانه أن يسحقها، تماماً كما بإمكانه أن يوصل آخرين وبأقصى سرعة ممكنة لأي مكان يرغبون.

لست ضد التطور ولكني ضد ما يُسمى تطوراً ولا يأخذ باعتباره الإنسان كفرد، كمخيال، كمجرة تمشي على الأرض، كروح تكمن في كينونة الورد والموج، لا في الأرقام والإحصاءات وأعداد الرعايا.

لست ضد التطور، لست ضد شارع الكورنيش. ولكني ضد الشارع الذي لم تعرفه الحاجية جوابة الدروب، الذي لم يعرّفها على نفسه، على حدوده، الذي سحقها.

مشهد آخر لا يقل سوداوية عن قربان الحاجية. فبينما كنت ذاهباً إلى السوق مشياً على الأقدام كان الشارع حتى هناك لايزال في طور السفلتة أو «الزفاتة»، وكان عماله حين ينتهون من القار الذائب يرمونه على جانب الطريق. وعلى ما يبدو فإن قطيعاً من الأغنام مر على بقعة من ذلك القار المذاب والطازج. جذبه هذا الشيء الغريب. دخل في البقعة فتجمد القار على أرجل الأغنام. كان مشهد تلك الأغنام وهي تحاول انتزاع أقدامها من القار. كان مشهد عيونها. كان مشهد دفاعها عن الحياة لا يُوصف، ولا يُعبر عنه.

لم أجرؤ على اقتحام القار ومساعدة أية غنمة. ظللت واقفاً كظل يلبس دشداشة، ظللت جالساً في وقفتي أشاهد ذلك المنظر الرهيب وارتجف.

ينتفض جسد الغنمة. تشتعل فيها الروح كما تعصر البروق أحشاء السماء، تعصرها وتلوكها (الرعد وحده كان يتحطم في جوفي) حتى

تمطر مطر الموت لتذوب واقفة هناك، في ذلك الفخ.

وبينما كانت الأغنام مصلوبة في القار، نظرت إلى البحر الجالس بجواري فوجدته منهاراً من البكاء.

بعد أن رصف شارع الكورنيش، أقيم شارع إسفلتي آخر على «الغليلة»، وشارع في الغرب، في الساحة التي كان يخرج إليها أهل المديفي للمقيظ، وشارع رابع يحد الحي من الجنوب.

سُوّر الحي بالزفت من الجهات الأربع. لكن التطور وبعد أن انتهى من هذا التسوير لم يُبق على الحي نفسه. فلقد بنيت مساكن شعبية هناك في الجنوب الغربي وطُلب من السكان الانتقال. لكنهم لم ينتقلوا كلهم إلى ذلك الحي الجديد. وزّعوا على مناطق عديدة في خورفكان حسب رغبتهم أحياناً، وحسب الموجود من المساكن الشعبية، وحسب قرارات السادة في البلدية.

حين انتقل أهلي إلى حي المديفي الجديد، انتقل معنا قليل من سكان الحي القديم، ولم يكن بإمكاننا نقل «الشريشة» المعمرة في وسط بيت الطفولة، ولا الطفولة التي بقيت ظلالها تمرح على جدران البيت القديم. كما لم يكن بإمكان أمثال الحاجية نقل الحكايات، بتلك الفعالية والروح، في هذا الحي الجديد.

كل شيء اختلف. وكان هذا التحول، أو الانتقال إيذاناً بانتهاء الطفولة ومعالمها إلى الأبد.

الحي القديم سكنه الآسيويون أو من لا يقدر على دفع إيجار

يرتفع. المسجد هُدم وبنيت محله بناية. حناءة المطوع خلفان التي لطالما فاحت رائحتها على كفوف الصبايا وأقدام المعيدين قُلعت وزُرعت محلها أشجار حديثة ومستوردة. سيف البحر حيث تتراقص الأمواج على ركح الرمل اختفى خلف الشارع. الجبال تحاول الهرولة، دون جدوى، حتى لا يتم القبض عليها. فكل جبل يُقبض عليه يُحوَّل بقدرة قادر إلى أسفلت. لقد طارت الجبال، أضحت كـ«العهن المنفوش»، سُحقت.

وفي الفترة ما بين نشر مادة هذا الكتاب كمقالات[1] وإعادة صياغتها ككتاب أزيل الحي القديم. لقد مات المديفي. رحم الله المديفي وأسكنه فسيح جناته.

أبوظبي

نوفمبر 2008

---

(1) نشرت المادة الأولية لهذا الكتاب على حلقات في الملحق الثقافي لجريدة الخليج – الشارقة في الفترة ما بين 12 يوليو 2004 و7 فبراير 2005، وأعادت نشر تلك الحلقات جريدة عكاظ السعودية عام 2007، كما نشر بعض الحلقات موقع «فراديس» (محمد حسن أحمد) وموقع جهة الشعر (قاسم حداد) الإلكترونيين.

المحتويات

صدر للمؤلف

- سبع قصائد من أحمد راشد ثاني إلى أمه التي لا تعرفه: شعر عامي. الدار العربية، دمشق، 1981.
- أغاني البحر والعشق والنخيل: إعداد. جزءان، جامعة الإمارات، العين، 1982/1981.
- دم الشمعة: شعر. دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، 1991.
- يالماكل خنيزي ويا الخارف ذهب: شعر عامي. أبوظبي، 1996.
- قفص مدغشقر: نص مسرحي. دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، 1996.
- ابن ظاهر: بحث توثيقي. المجمع الثقافي، أبوظبي. 1999.
- حافة الغرف: شعر. دار الانتشار العربي، بيروت، 1999.
- العب وقول الستر: نص مسرحي. دار الانتشار العربي. بيروت. 2002.
- حصاة الصبر (الجزء الأول من السرد الشفاهي). إعداد. المجمع الثقافي، أبوظبي، 2002.
- دردميس (الجزء الثاني من السرد الشفاهي). إعداد. المجمع الثقافي، أبوظبي، 2003.
- جلوس الصباح على البحر. شعر. اتحاد كتاب وأدباء الإمارات. الشارقة، 2003.

- ... إلا جمل حمدان في الظل بارك (الجـزء الثالث من السرد الشفاهي)، إعداد، المجمع الثقافي، أبوظبي، 2005.
- يأتي الليل ويأخذني. شعر. دار النهضة العربية، بيروت 2007.
- رحلة إلى الصير، بحث، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، 2007.
- أرض الفجر الحائرة. (مقالات)، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، أبوظبي، 2009.

على الباب موجة

على تموج تلك المياه رأى الأهالي وجوههم قبل عثورهم على المرايا، وسبحوا في قيعان نفوسهم قبل ابتداع المرشدين الروحيين.

بمياه البحر وحدها يُمكن تشبيه المداد الرباني، كما يمكن تشبيه إيقاعات الروح بأمواجه. على تلك الأمواج سالت دماء أجدادي ودموعهم وأعمارهم، تماماً كما سالت طفولتي على باب بيتنا المفتوح، أو الذي كان مفتوحاً على البحر، فلقد كان يسعك في تلك الحياة وفي أي لحظة تتوقع أن تدق الموجة على الباب، باب البيت أو باب الجسد أو باب المخيلة أو باب الحلم، وتضغط على جرس الحياة.



السعر 30 درهماً

